إسلامية جامعة

الهدى

في هذا العدد

صفر 1409 — 19 — أكتوبر 1988

المحتويات

الهدى

العدد التاسع عشر

صفر 1409

أكتوبر 1988

الإيداع القانوني : 26 ـ 1982

مطبعة فضالة ـ المحمدية

المغرب

ثمن النسخة

- المغرب : 7 دراهم
- الخارج : 2 دولار أمريكي

الهدى

مجلة
إسلامية جامعة تصدرها جمعية
جماعة الدعوة الإسلامية بفاس

المدير المسؤول: المفضل فلواتي

العنوان: حي عز الله ـ زنقة 2
رقم 1 ـ شارع الموحدين ـ فاس

الاشتـراك

لأربعة أعداد في السنة

- المغرب : 28 درهماً
- الخارج : 10 دولارات
- للمؤسسات : 20 دولاراً

يرسل الاشتراك على شكل حوالة باسم مدير المجلة
على عنوان المجلة أو إلى الحساب البريدي
رقم P 67 .22 ـــ الرباط

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة

تعرف الأرض المحتلّة بفلسطين انتفاضة تحرّكها جحافل المؤمنين أطفالاً ونساء، شباباً وشيوخاً، سلاحها الحجارة تقذفها في وجه العدو مشحونة بالإيمان، مزلزلة أقدام الصّهاينة العتاة، ومبدّدة أحلام «أمن إسرائيل» الذي أهلك الطّغاة اليهود الحرث والنّسل من أجله.

انتفاضة كانت انطلاقتها من المسجد، تحرّكها أطر وقيادات إسلامية لا تخاف في الله لومة لائم، بعد أن فشلت التّيارات المضادة في تحقيق أي عمل مثمر سواء داخل الوطن المحتل أم خارجه، بل لم تحقّق إلاّ المزيد من التّمزق والتّشرّد للشّعب الفلسطيني المسلم، والمزيد من التّقتيل والتّشريد لأبنائه على أيدي ـ دعاة التّقدمية والنّضال الجماهيري !

فماذا قدّمت الدّول العربية لنصرة الانتفاضة الفلسطينية المباركة ؟ خطب تأييد كلامية، وتحرّكات مجاملات دبلوماسية، لا غير !... بل تتحرّك إحدى هذه الدّول منذ زمن لإبادة الشّعب الفلسطيني وتقتيل أطفاله ونسائه وشيوخه بعد أن أجهزت على رجاله، والتنكيل بهم بتخريب البيوت ونسف المخيمات، عن طريق أبي موسى وأشباهه !

وارتمى على الانتفاضة بعد أن دوّت، دعاة نضال الصّالونات، وتناسوا تأييدهم ومساندتهم لقيام دولة إسرائيل وقوفاً جنب أحزاب من دولة العدو الغاصب تسير على نفس النّهج الذي ساروا عليه، وحاولوا جاهدين مسخ إسلامية الانتفاضة، ونكران فضل المساجد في تحريكها وإدارتها، إلاّ أنّ واقع الحركة داخل الأرض المحتلّة يبطل مكرهم ويفضح تلاعبهم.

وإن كان معتاداً سلبية الدّول العربية تّجاه الانتفاضة الفلسطينية المباركة ـ ولو حتّى على مستوى الرّدع للدّولة العضو في الجامعة العربية، المقتّلة للشعب الفلسطيني، والمهدّدة إياه بمزيد من الإفناء والتّقتيل ـ فإنّ ما يثير الاستغراب ما جاء في ندوة الأدباء والمثقفين العرب المنعقدة مؤخّراً بصنعاء لتأييد الانتفاضة الفلسطينية.

«ففي أثناء صياغة البيان الختامي لندوة صنعاء، وقع خلاف حاد حول تصدير البيان بآية من القرآن تحض على الجهاد. ولكن الشّاعر المصري أحمد عبد المعطي حجازي اعترض على ذلك قائلاً إن المجتمعين ليسوا من المسلمين فقط، والمخاطبين ليسوا من المسلمين فقط، ولذلك لا ضرورة للبحث عن آية في القرآن، وإلاّ اضطررنا للبحث عن آية في الإنجيل أيضاً. وقام الشّاعر المغربي عبد اللّطيف اللّعبي ليقول إنّه شاعر ملحد لا يسمح أصلاً بمثل هذا اللّجوء السّياسي إلى الدّين. ووقف أديب عربي ثالث متسائلاً عمّا سيقوله العالم حين يقرأ هذه التّصديرات الدّينية التي تخالف عقائده، فإنّنا بذلك نوحي أولاً أن الحرب مع إسرائيل هي حرب دينية، كما أننا نخاطب الرّأي العام ونحاول جذبه بلغة لا يفهمها إن لم تكن معادية له.» (مجلة «الناقد»، العدد الثالث، شتنبر 1988، ص 82).

ألا قبّح الله الجهل والكفر !!...

ويعلم العاقل أن إسرائيل لا تقيم وزناً لهراء ندوة المثقفين والأدباء العرب، ولا لطنين اجتماعات الحكّام العرب، ولكنّها تقيم الوزن كل الوزن، لكل تكبيرة صادرة من أي مسجد من مساجد الأرض المحتلّة، ولكل حجر يحمله أي طفل مسلم من أطفال ذلك الشّعب الشّريد، لعلمها أن الإسلام هو الشيء الوحيد الذي يهدّد «أمنها» ويوقف بطشها !

والانتفاضة المباركة مستمرة، والقافلة تسير و...

ولينصرن الله من ينصره،...

«الهـدى»

الافتتاحية

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بالأَخسَرِينَ أَعْمَالاً ؟!!

إن عالمنا الإسلامي لم يعرف السّقوط في الفترات التي أناخ عليه المستعمر بجيوشه وعتاده فقط، ولكنّه عرفه قبل ذلك بقرون، فقد عرفه يوم تعطّلت أجهزته التشريعية والتعليمية والسياسية عن العطاء، وعرفه يوم تفشّت الأُمّية وانتشر الجهل والتخريف، وصار الجهلاء يحاكمون المفكرين والعلماء، وعرفه يوم انتشر الاستبداد وصارت كراسي القيادة والزّعامة تحت الحاكمين بأمرهم لا بأمر شرع ربّهم، وعرفه يوم صار علماؤه عاجزين عن إضافة شيء لبناء الصرح الحضاري الذي بناه الأَولون مرددين القولة المشهورة «ليس في الإمكان أبدع مما كان».

وعندما حلّ المستعمر بالدار سيداً مُطاعاً، وضع نصب عينيه هدفين رئيسين ليطيب له المقام، ويضمن لنفسه دوام التّمكّن والتّحكّم :

الهدف الأَول : العمل بذكاء على قطع كل الشّرايين التي تربط حاضر الأُمّة بماضيها ومستقبلها من لغة ودين وتاريخ وتراث حضاري، وكل ما تعتزّ به من القيّم والعادات والمثل التي تعتبر من الخصائص الذاتية للأُمّة، ومن العناصر الأَساسية لهويتها المتميّزة، حتى لا تجد في مستقبل أيامها محطّة تنطلق منها لمقاومة العدوان وإعادة البناء.

الهدف الثاني : تكوين أجيال ورجال يعتمد عليهم في تنفيذ مخططاته، يكفونه شرّ الصّدام، ويتحمّلون نيابة عنه مهمّة التشكيك والتمزيق لخلايا الأُمّة وأنسجتها، ناشرين فكره، ومبشرين بحضارته، دون تمييز بين المقبول منها والمبتذل المرفوض.

وساعده على النّجاح هلهلة البناء السياسي، وانعدام المؤسسات المغطية لنشاط الفرد في كل المجالات، نتيجة الجهل والجمود وعدم وضوح التّصور الصّحيح للدّين الذي أصبح الشّكل فيه يطغى على الجوهر بالإضافة إلى الفقر المدقع في جميع الميادين العلمية والفكرية القادرة وحدها على التنظير للمبادئ الإسلامية، ومحاورة الحضارات الأُخرى بالأُسلوب العلمي المقنع والمفحم.

فكان هذا التّخلّف الشامل أساس الانبهار ثم السّقوط أمام التيار الوافد، والتسليم له بالإمامة والزعامة في كل شيء، حتى الدّين والقيم والأَخلاق أصبحت تحكمها النظرة الغربية، ويتعامل معها بنفس الأُسلوب الذي يتعامل به الرجل الغربي مع دينه الذي صفّى الحساب معه يوم اكتشف خدعة رجال الكنيسة له، باسم الدين المقطوع الصّلة بالعقل والنّقل.

وتبع الانبهار والتسليم استيراد للبضائع والنّظريات، والمشاكل والحلول أيضاً، ووضع كلّ شيء - مما يناقش وما لا يناقش - محل نظر واختبار، وهكذا أصبحت كل ثوابت الأُمّة ومسلّماتها - في نظر المستوردين - مشكلاً يجب حلّه بذات الطريقة السّحرية التي عولج بها في ديار (الأَشياخ). فالمرأة - مثلاً - عبارة عن (ركام من المشاكل)، فعملها مشكل، وتعليمها مشكل، وزواجها مشكل، وجلوسها في بيتها مشكل، وحقّ القوامة عليها مشكل، وتحجّبها مشكل،... والقائمة طويلة. وكل هذه المشاكل لا تتوفر أدويتها إلا في صيدليات السيد المستعمر.

إلا أن أخطر مشكل صدّر إلى الأُمّة كما تصدّر البضائع هو مشكل «الدين» نعم، حتّى الدين أصبح مشكلاً ! ألم يكن عند «السادة الأَشياخ» مشكلاً في فترة من فترات تاريخهم ؟ فما المانع من أن تحيى نظرة الأُروبي إلى دينه أيام الثورة عليه بنفس الموازين، ويسحب كل ذلك على الإسلام بدون تفريق بين دين نزل من السماء وبقي محفوظاً كما نزل، وبين دين لوثته الكنيسة بتحريفاتها، وشوهت تعاليمه أهواء البشر.

إن مشكل التنازع على رسم حدود الدين، وتقليص سلطته، لم تعرف أُمّتنا مثيلاً له، لأَن طبيعة الإسلام - لمن يفهمها - لا تسمح ببروز هذا المشكل وتناميه فالكل - في الأُمّة - مقيد ومحكوم بالإسلام، قمة وقاعدة، ذكر وأنثى، سياسة شرعية وتوجهات أخروية، فالإسلام هو الحكم والميزان، به يُقوِّم الرئيس والمرؤوس، والعَالِم والجاهل، والمخلص والمنافق، ولا أحد - كائناً من كان - يمكن أن يكبر عليه، أو يدّعي احتكاره، أو عدم التّقيد به والنّزول على حكمه. لأَن هذا من شأنه أن يطوّح بالأُمة بعيداً عن مصدر قوتها وتماسكها، ويدفع بها إلى متاهات فكرية وأخلاقية وتشريعية لا ضوابط لها ولا استقرار، ويفتح الباب على مصراعيه لتحكّم الهوى وسيادة «الأَنا» الصّنمية التي جاء الإسلام لتحطيمها، وتحرير الإنسان من منطقها الأَهوج المتمثل في الشّعار الفرعوني : ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ - سورة غافر : 29.

إن المشكل نبت في أرض تضافرت فيها كل العوامل على إيجاده، وتهيّأت كل الأَسباب لظهوره، إنها أرض أُوربا التي خضبت بمئات الآلاف من الضحايا عبر حقب تاريخية مأساوية للتّخلّص من الجمود الكنسي، والفهم الكهنوتي الذي جعل من رجال الدين طبقة خاصة تمثّل السيطرة المطلقة، وتمارس الاضطهاد المذل للكرامة في استعلاء وتعصب وغرور قَلَّ نظيرها في التاريخ. وكان للإنسان الأُوربي كامل العذر في مقاومة الطّغيان الكنسي المستمدّ للشرعية من دين صنعه البشر ونسبه لله تعالى زوراً وبهتاناً.

إن إقامة الكنيسة للدولة الدينية افتئات على الدين المسيحي، وتزيّد على أُصوله ومبادئه المحكومة بهذا النّص «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» إنجيل متى 21/22. وذلك يعطي للرازحين تحت وطأة شهوة رجاله كامل الحق في الثورة عليه، وتحجيم دوره، لينطلق الإنسان المسحوق حرّاً يبني دنياه، بعد أن ضلّ طريق أخراه.

فكيف يمكن سحب كل ذلك على الإسلام ؟ إن الإسلام هو مرآة الأُمة فيه ترى نفسها وذاتها، والذين ينادون بالفصل بين الدين والحياة يريدون فصل الأُمّة عن روحها ومشاعرها ومقومات كيانها، لتعيش في دوامة من الشعور بالانفصام والتّعقد والتأزّم، يقودها في النّهاية إلى التّمزّق الداخلي والتّشتّت الخارجي بعد السطو على الهوية.

وكيف يتأتى لمن يدينون بالقرآن - وكلّه تشريع للدنيا من أجل الفوز بالآخرة - الفصل بين الدّنيا والدين ؟! لنأخذ على سبيل المثال قوله تعالى : ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون، وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكّل على الله﴾، الأَنفال.

أين هو الخط الفاصل بين الدنيا والدين في هذا النّص ؟ وبتعبير أوضح وأدقّ : متى يكون المسلم - لا غيره - يبذل نفسه وماله في سبيل الدنيا بمعزل عن الدين ؟! ومتى يكون يبذل كل ذلك في سبيل الدين بمعزل عن الدنيا ؟! ثم على أي أساس - في غيبة الدين - يمكن تصنيف الناس إلى عدو حاقد يُعَد له ويُرهَب، وصديق شقيق يُدنى ويُقرب ؟! ثم كيف يتم للمفاوض المسلم توقيع معاهدة سلمية بمعزل عن التوكل على الله الذي يكفيه شر المكر والكيد والتناور ؟! أين هو الخط الفاصل بين سلم تراد بها الدنيا فقط، وسلم تراد بها الآخرة ؟!.

يظهر أن نوابغ الفكر المستورد رزقوا عقلاً ببغاوياً إمعياً من طول تربيتهم في أحضان أسيادهم، وتلقّيهم حقن التّخدير والتّمنيع ضدّ الدّين، فأصبحوا غرباء داخل أُمّتهم، لا هم بهوية إسلامية، ولا هم بهوية يهودية أو نصرانية، من الكفر يخافون ويفرون، بينما هم في مستنقعاته غارقون، يدّعون الانتماء جهراً للإسلام، ولكنّهم في تهديمه موظّفون، ينفثون سموم الشّك في كل شيء، في العقيدة، والنّبوة، والتّشريع،

والتاريخ، ويحطّون من قدر رجال أُمّتهم ماضياً وحاضراً، يزرعون اليأس في القلوب أينما حلّوا، وحيثما تكلّموا أو كتبوا، في جرأة نادرة على المساس بكل مقدّسات الأُمّة، يغفلون جهلهم المطبق بالكثير من الدعاوي العلمية الفارغة المحتوى، لملء فراغ عقولهم، وخواء قلوبهم، وشغل الناس (بعبقريتهم) المحنّطة.

وهؤلاء يستمدّون حجّة تيئيسهم من صلاحية الدين للحياة، من التاريخ والواقع، فمن التاريخ اتّخاذ تصرّفات بعض الأُمراء والحكّام المنحرفة دليل إدانة للإسلام، بدل إدانة للحكّام، مثلهم في ذلك مثل من يحكم على فساد المتر بطول الثوب أو نقصانه عنه، وهو قياس السّذج المصابين بلوثة في عقولهم.

ومن الواقع يرون أن الإسلام أعجز من أن يحتوي ما جدّ في حقول العلم والتكنولوجيا والفكر والأَدب، وميادين الاجتماع والاقتصاد والسياسة، والفن والإعلام، كأن الإسلام قيد على العقول والأَيدي، وخلو من النظريات التي تحكم تصوره لهذه الحقول وغيرها.

حتى إن أحلام بعض العصافير التي تفكّر برجلها تصوغ مشاكل بالغة التعقيد - في نظرها - لتقنع من جهة، وتسفه رأي المطالبين بتحكيم شرع الله من المخلصين السليمي القلوب - ولو كانوا أعضاء في أحزاب حاكمة - من جهة أُخرى. فيرى مَثلاً أن تطبيق حد الزنا، سيقود إلى تحريم الملاهي، والرّقص الشعبي، ومسارح الباليه، بل الكارثة ستكون أكثر عندما يصل الأَمر إلى تحديد رأي الإسلام في ظهور المذيعات على شاشة التلفاز كاسيات عاريات متبرّجات يبدين زينتهنّ، ويلبسن أزياء لم يعرفها الصّدر الأَول في الإسلام !! وحتى لو ظهر الرجال فسوف يخرج البعض ليتساءل من جديد حول فسق المذيعين وعدم إطلاقهم اللحية وتقصير الشّارب... إلى آخر هذه المشاكل - قبل السقوط ص. 34 -!!!.

إن هموم الأُمّة أكبر من هذا الهذيان، وأهدافها ورسالتها في الحياة أعظم من أن تعوقها هذه الجزئيات التي سيوجد لها الحل - إن كانت مشاكل حقاً - أو تختفي من تلقاء نفسها يوم يوجد التّوجه الصحيح، والانطلاق السليم المتوهج إيماناً وعزماً.

والغريب في أمر هؤلاء المهزومين أنهم لا يصرّحون بأنهم يهدمون، ولكن يدعون أنهم إنما ينطلقون من موقع النّصح للأُمّة والإشفاق عليها من السّقوط في (وحشية) الطّهر والعفّة والنزاهة والصفاء العقدي والتعبدي والخلقي ﴿وإِنَّهُم لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الزخرف.!!.

فهل نحن واقفون حتى يخشى علينا السّقوط ؟!.

هل نحن واقفون ومهزومو الفكر يبددون الجهود، ويهدرون الطّاقات في المسلمات الإسلامية المعلومة من الدين بالضرورة ؟! هل نحن واقفون والمنتمون لمواريث الغرب يستعظمون على الأُمّة الرجوع إلى أصالتها لكي لا تكون لقيطة بين الأُمم ؟! هل نحن واقفون وهم يعطون الحق لأَنفسهم في نقد كل شيء، وتقويم كل شيء حتى مبادئ الإسلام وأحكام شريعته المجمع عليها ؟!.

منطق معكوس، وعلم جديد يرتفع فوق علم الله تعالى ليردى صاحبه في أسفل مهاوي الجهل القاتل لأَصحابه، لقد اختلط في نظر هؤلاء الأَبيض والأَسود فساووا بين نظريات البشر العاجز القاصر، وبين شريعة الله الفاصلة النازلة ميزانا ليقوم الناس بالقسط.

ومع هذا الإصرار على التّهديم يأبى هؤلاء إلا أن يصرّوا على الانتماء للإسلام، وبأنهم من قلبه يتكلّمون، وبدافع الغيرة على مصالح الأُمّة يتحرّكون ويكتبون، هل هو أُسلوب جديد في الكيد والهدم والخِداع والتّحايل على سرقة هوية الأُمّة، وهي أعزّ ما تملك، وأثمن ما به تصاول وتجاول ؟!!.

إن هؤلاء لو سخّروا فكرهم في تقعيد نظم الإسلام، ومنهجة نظرياتهم المتعدّدة في كل ميدان، لأَضافوا لرصيد الأُمّة حلقة من الحلقات الحضارية الزّاخرة، ولأَوجدوا للحكام بديلاً يقيمون به الحجّة عليهم أمام رب العالمين، ولفتحوا أبواباً جديدة من الاجتهاد المشروع الذي عانى المسلمون من اقفاله تخلفاً مريراً. أما تضييع الوقت في المسلّمات فذلك هو الكيد، وذلك هو السّقوط، وإذا لم تكن هذه الظاهرة وأمثالها سقوطا فكيف يكون السّقوط ؟!.

مفاهيم العدل والظلم في القرآن

● للأُستاذ مصطفى بن الشيخ فضيل

1 - العدل :

إن مسألة العدل والظلم توجد من بين مسائل عديدة نحتاج إلى معرفتها من خلال القرآن الكريم، خاصة في هذا العصر الذي اضطربت فيه الموازين واختلت فيه المقاييس بعد أن تحكمت فيها الأهواء والفلسفات، حتى صار العدل **نسبيا يتغير من مكان إلى مكان ويتأثر بالظروف والملابسات. وصار الظلم - بفعل المكر والخديعة - يغلف بغلاف البراءة، حتى انتهى الأمر في كثير من الأحيان إلى عدم التمييز بين ما هو عدل وما هو ظلم بالرغم من وضوحهما للعقل السليم كوضوح النهار والليل.**

ومن ثم جاء هذا البحث محاولة متواضعة لمعرفة نظرة القرآن الكريم إلى هذا الموضوع الخطير، وكيف تحدث عن حقيقة كل من العدل والظلم ومجالاتهما ومفاهيمهما المتعددة مما لا يمكن أن يدركه العقل الإنساني ولا أن يصل إليه دون أن يسترشد بنور الكتاب المبين الذي وسع من مفهوم العدل والظلم وبين مواقعهما، حتى تتبين سبيل كل منهما في الحياة ويصير الذي يختار بينهما كمن يختار بين ضوء النهار وظلام الليل وهو مسافر.

غير أنه ينبغي التنبيه هنا إلى قاعدة مهمة، سواء بالنسبة لهذا الموضوع أو غيره من المواضيع القرآنية التي نريد أن ندرسها كجزء من القرآن الكريم. فكتاب الله عز وجل كتاب متكامل الأطراف، لا ينبغي، ولا يمكن أن نفصل بعضه عن بعض. فإن كان ولابد من الفصل والتعامل مع موضوع واحد من موضوعاته - كضرورة علمية - فلابد من أن يكون ذلك في إطار المقاصد والمعاني الكلية لمجموع القرآن الكريم.

فمثلاً سوف نتطرق - بعد قليل - إلى عدل الله عز وجل ومظاهره. غير أن بعض هذه المظاهر قد يخفى علينا أو لانفهم سره إذا لم ننظر إلى عدله جل جلاله كصفة له من بين صفات عديدة؛ كالحكمة والعلم والقدرة والإحسان والرحمة والغنى وغيرها مما ورد بيانه في جهات ومواضع أخرى من القرآن الكريم. أي أننا إذا أردنا أن نفهم عدله سبحانه وتعالى فعلينا أن نتعرفه ضمن مواضيع متكاملة تحدثت عن صفات الله الجليلة.

أما فيما يخص موضوع العدل والظلم في القرآن الكريم فإنه أعظم من أن يحيط به كتاب بله عرض أو مقال.

فإن العدل بالمعنى الذي تدل عليه هذه الكلمة موجود في كل موضع من مواضع هذا الكتاب المعجز، فهو متناسق نظما ومعنى، فلا إفراط ولا تفريط، وهذا من أقوى الدلالات التي تدل عليها كلمة العدل كما سنرى فيما سيأتي، إن شاء الله تعالى. بل يمكن القول بأن العدل موجود في كل القرآن بجميع المعاني الإيجابية والحقيقية التي تشملها كلمة العدل في اللغة.

فإن العدل في اللغة يتردد بين معان ثلاثة :

1 - المساواة.

2 - الأمر الوسط بين الإفراط والتفريط.

3 - الاستقامة.

وكذلك الشأن بالنسبة للظلم، نجد القرآن الكريم - في كل موضع من مواضعه يطارد الظلم وينزه الله تعالى عنه سواء بطريق مباشر أو غير مباشر. ذلك أن الظلم في اللغة يتردد بين المعاني التالية :

1 - التصرف في ملك الغير.

2 - مجاوزة الحد.

3 - وضع الشيء في غير موضعه.

4 - الميل عن القصد.

5 - النقص.

وكل هذه المعاني منتفية عن القرآن الكريم في شكله وموضوعه. وصدق الله العظيم إذ يقول فيه : ﴿**كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير**﴾. فلله الحمد رب السماوات والارض رب العالمين.

وإنما كانت هذه المقدمة في هذا المقام للتنبيه إلى أن هذا المقال مقتصر على الآيات التي جاءت فيها المصطلحات التي تفيد العدل والظلم دون الآيات التي تدل عليهما بالسياق والمفهوم، أي بدون ذكر تلك المصطلحات وزيادة على ما سبق من سعة موضوع العدل والظلم، كان الدافع إلى ذلك الاقتصار هو محاولة عرض حديث القرآن الكريم عن العدل والظلم المفهومين بالتصريح لدى عموم الناس، بحيث يستطيعون معرفة مواضع العدل ومجالاته وحقيقة الظلم ومواضعه بطريقة مباشرة لاتحتاج إلى إعمال فكر ولا إلى استنباط. ونترك المواضع الدقيقة لخصوص الناس وعلمائهم يستلهمون منها المعاني اللطيفة والإشارات الجليلة ويكتشفونها باجتهادهم وتدبرهم لآيات الله عز وجل.

ولما كان القرآن الكريم بلاغاً للناس جميعاً، فإن مجرد ما جاء به في شأن العدل والظلم صريحاً واضحاً، كاف لاكتساب نظرة شاملة عنهما في مجالات الحياة الإنسانية.

العدل في القرآن الكريم

أولاً : العدل لغة :

- جا في لسان العرب : «العدل ما قام في النفوس أنه مستقيم».[1]
- وقيل : «هو الأمر بين الإفراط والتفريط».[2]
- وقال الراغب الأصفهاني : «..العدل هو التقسيط على سواء. وعلى هذا روي :» بالعدل قامت السماوات والأرض» تنبيها على أنه لو كان ركن من الأركان الأربعة في العالم زائداً على الآخر أو ناقصاً عنه على مقتضى الحكمة لم يكن العالم منتظما».[3] اهـ بتصرف.
- والعدل : الحكم بالحق.[4]
- والعدل : القيمة : يقال : خذ عدله من كذا وكذا أي قيمته.[5]

ثانياً : التحديد الاصطلاحي، أو المفاهيم القرآنية لكلمة العدل.

عندما ننتقل إلى عالم القرآن الكريم نجد هذه الكلمة دالة على معان أخرى جديدة.

وهذه مسألة تدخل ضمن الإطار العام للتوسع الدلالي الذي أحدثه القرآن الكريم في الألفاظ العربية. وفيما يلي بعض مظاهر هذا التوسع.

1 - بعض مظاهر التوسع الدلالي في كلمة العدل :

أ - وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم على معانٍ مختلفة، يجمعها قول سعيد ابن جبير رحمه الله تعالى : «إن العدل على أربعة أنحاء» : العدل في الحكم، قال الله تعالى : ﴿**وإن حكمت فاحكم بينهم بالعدل**﴾*. والعدل في القول، قال الله تعالى : ﴿**وإذا قلتم فأعدلوا**﴾ والعدل : الفدية قال الله عز وجل : ﴿**لا يقبل منها عدل**﴾، والعدل في الإشراك، قال الله عز وجل : ﴿**ثم الذين كفروا بربهم يعدلون**﴾،[6] أي يشركون.

ب - إن القرآن الكريم وسع من مفهوم العدل الذي هو بمعنى القسط. بحيث أصبح له معنى جليل وخطير يبتدئ بكونه صفة لأوامر الله وأحكامه وأفعاله عز وجل ثم بكونه صفة مطلوبة في الأمة الإسلامية تجاه غيرها. ثم بكونه صفة مطلوبة في المحاكم والقاضي ثم بين أفراد المسلمين سواء في الأسرة الكبيرة التي هي المجتمع أو الأسرة الصغيرة حيث الحياة الزوجية. وهكذا يمكن القول بأن كلمة العدل أصبحت تحمل معنى حضارياً.

ج - إن كلمة العدل بذلك المعنى وردت مصحوبة

---

*) هكذا وردت الآية في «لسان العرب» ، وصوابها «بالقسط» : المائدة 42، وأما لفظ «بالعدل» فواردٌ في قوله تعالى : ﴿**وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**﴾، النساء 58.

في مواقعها في القرآن الكريم ببيان الأسباب المؤدية إلى العدل والنتائج المترتبة عليها مما يزيدها بياناً وقيمة في النفس.

د - إن كلمة العدل بمعنى المساواة كما سبق بيانها في التحديد اللغوي يجب أن تضبط وتوضع في إطارها الصحيح، ولذلك فقد وصف الله سبحانه وتعالى المشركين بأنهم «بربهم يعدلون» إشارة إلى اضطراب المقاييس عندهم حيث يسوون به غيره في العبادة مع أن الله عز وجل لا يماثله شيء ولا يستحق العبادة غيره.

وسيزداد هذا الأمر بياناً - بإذن الله تعالى - في الفصل الخاص بمجالات العدل.

2 - مصطلح العدل في القرآن الكريم :

لقد ورد هذا المصطلح ومشتقاته ثماناً وعشرين مرة متفرقة في خمس وعشرين آية من سور مختلفة من القرآن الكريم، من أوله وأوسطه وآخره وهي إحدى عشرة سورة مكية ومدنية. وهذا يدل على أن هذه الكلمة بدلالتها شغلت حيزاً كبيرا في القرآن الكريم.

ومصطلح العدل يدل على معناه في كتاب الله تعالى بحسب الصيغة وبحسب السياق الذي ورد فيه. غير أنه يمكن جمع مادلت عليه تلك الصيغ في الخطوط التالية :

أ - العدل : الفدية. جاءت كلمة العدل بمعنى الفدية في قوله تعالى : ﴿**ياأيها الذين آمنوا، لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم. ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة، أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره، عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه، والله عزيز ذو انتقام**﴾. (آية 95 - المائدة).

قال الراغب الأصفهاني قوله تعالى : ﴿**أو عدل ذلك صياماً**﴾ : أي ما يعادل من الصيام الطعام فيقال للفداء عادل إذا اعتبر فيه معني المساواة.[7]

ب - العدل : الشرك : وجاءت بمعنى الشرك في قوله تعالى : ﴿**ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون**﴾ (150.الأنعام)

ج - العدل : القسط : وجاءت بمعنى القسط والحق كما في قوله تعالى : ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان...**﴾ (الآية : 90 النحل).

والذي يعنينا من هذه المعاني هو هذا المعنى الأخير. ذلك أن طبيعة البحث تنبثق من عنوانه : «مفاهيم العدل والظلم في القرآن الكريم» أي المفاهيم القرآنية للعدل والظلم المتقابلين.

ولقد عبر القرآن الكريم عن معنى العدل بصيغ مختلفة وألفاظ متعددة، ولا شك أن في ذلك مزيد بيان لصفة العدل وكشفها من جوانبها المختلفة، وتأكيد معانيها بالقدر الذي يدل على جلالها وخطورتها.

ولما كان العدل صفة محمودة معروضة في القرآن الكريم بأبعادها ومجالاتها وكانت كلمة «العدل» دالة على بعض هذه الأبعاد والمجالات بصيغة الإجمال، فقد لزم الرجوع إلى الكلمات المشابهة في الدلالة على معنى العدل، وذلك بهدف تفصيل ذلك الإجمال، وزيادة البيان في ما جاء مفصلاً.

ومن بين تلك الكلمات القسط والحق والسواء وغيرها من الكلمات التي وردت بمعنى العدل.

وعلى هذا الأساس نريد أن نجول قليلاً في رحاب العدل بمعناه القرآني الجليل. إن العدل صفة طيبة ينشرح لها القلب وترتاح إليها النفس ويستحسنها العقل، ولا يستنكرها إلا ظالم تعطلت فيه تلك المقاييس وتحكم فيه الهوى فأصبح لا يميز بين محمود المعاني ومذمومها.

فمن البداهة - إذن - أن يكون ما يستحسنه العقل وما سبق من تعريف العدل في لغة العرب هو ما يقصده القرآن الكريم، ذلك أن العدل وغيره من الصفات المحمودة مستحسنة عند العقلاء على مدى الأزمان. وفي ذلك يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى : «**إن العدل والصدق والتوحيد ومقابلة المنعم بالثناء والشكر حسن في نفسه، وازداد حسنا بأمر الرب به وثنائه على فاعله. وإخباره بمحبته ذلك ومحبة فاعله**»[8].

وقد وسع القرآن الكريم من مجالات العدل، وبين الأسباب المؤدية إليه والنتائج المترتبة عليه وحذر من

تركه، وبين عواقب ذلك. أي أن العدل ـ كما سبقت الإشارة أصبح بمجيء الإسلام ونـزول القرآن الكريم يحمـل معـاني سامية متكاملة الأطراف تـامة البنيـان. وأول هـذه المعـاني كون العدل صفة من صفات الله سبحانه وتعالى.

عدل الله تعالى

جاء التعبير عن عدل الله سبحانه وتعالى مرة بإثبـات هذه الصفة، ومرة بنفي ما يضادها، وهو الظلم، وفي ذلـك ـ لاشك ـ تأكيد ومزيد بيـان، وإلا فـإن مجرد إثبـات عدلـه جل وعلا وحده أو نفي الظلم عنه وحده كاف للدلالـة على عدله عز وجل.

ونقتصر في هذا المقام على الصيغـة الأُولى أي إثبـات عدله بينما ندع الثانية إلى حينها في مبعث الظلم.

إن القرآن الكريم يثبت لـلـه عـز وجـل صفـة العـدل بألفاظ مختلفة كالقسط والحق إضافة إلى لفظ العدل.

والعدل والقسـط والحق مصـادر تـدل على ثلاثـة أسماء من أسماء الله الحسنى وهي : العدل، والمقسط والحق.[9]

فأما اسم الحق فقد ورد في القرآن الكريم زيادة على وروده في السنة.

وأما اسم العدل فلم يرد في القرآن الكريم، وإنما جاء كصفة لأمر الله وإرادته في قوله تعالى : ﴿**وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا**﴾ (115 ـ الأنعام).[10]

وكذلـك اسم المقسط لم يرد وإنمـا وردت منـه صفـة منسوبة لله عز وجل بلفظ «قائماً بـالقسـط» وذلـك في نص الآية الشريفة : ﴿**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط**﴾. (18.آل عمران).[11]

وقوله تعالى في هـذه الآيـة : ﴿**قـائمـا بـالقسـط**﴾ حكى الرازي عن جمهـور المفسرين أنـه حـال من شهـد الله»[12] والله سبحـانـه وتعـالى في جميع الأحوال كـذلـك، كما قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية.

وقال الرازي : معنى كونه «قائماً بـالقسـط» أي قـائمـاً بـالعدل كمـا يقـال : فلان قـائم بـالتـدبير أي يجريـه على الاستقامة.[13]

وإنها لشهادة كافية أن يشهد الله سبحانه وتعالى أنـه واحد، وأنه قائم بالعدل. ولكنـه برحمتـه يزيـد ألامر بيـانـا بإخبارنا عن شهادة الملائكة وأولي العلم.

وكون الله عز وجل عادلاً يعني أنه لايميل بـه الهوى فيجـور في الحكم[14] وأن أفعـالـه واقعـة على نهـايـة الانتظام.[15]

ومن ثم قال الإمام الغزالي : «لن يعرف العـادلَ من لم يعرف عدلَه، ولا يعرفُ عـدلَـه من لم يعرف فعلَه، وكل مـا في الوجود من أفعاله تعالى».[16]

فعدل الـلـه تعالى يتجلى في مظاهر متعددة بتعدد أفعـال الـلـه تعالى ولا يمكن أن يـأتي عليها الحصر غير أننـا إذا تـدبرنـا «القرآن الكريم، كتـاب الـلـه المقروء، وتفكرنـا في الكـون كتـاب الـلـه المنظور».

فيتحصل من ذلـك لـدينـا مظهران جليلان من مظاهر العدل :

أولاً : عدل الله تعالى في الخلق.

ثانياً :عدل الله تعالى في الحكم.

أولاً : عدل الله عز وجل في خلقه

وإنما نعني بالعدل في الخلق، أن الأشياء التي خلقهـا الله عز وجل جاء خلقها على الشكل الذي تظهر فيه معاني التّسويـة والاستقـامـة والتوسط بين الإفراط والتفريـط كـل ذلك وفق حكمة الله البالغة.

غير أنّا لا نجد في هذا الباب من الآيات التي ذكرت فيهـا كلمـة العدل، إلا مـا يخصّ خلـق الإنسـان حيث ورد التعبير بلفظ «فعدّلـك» في قوله تعـالى : ﴿**الـذي خلقـك فسـواك فعـدّلـك**﴾. ولـذلـك، وحتى نكتسب مفهـومـاً عن العـدل في الخلق عمـومـاً فقـد لـزمنـا الرّجوع إلى كلمتين أخريين تؤدّيان نفس المعنى تقريباً. والله أعلم.

وهاتان الكلمتان هما : الميزان والسّواء.

فـأمـا الأُولى فقـد وردت في بعض الآيـات بمعنى العـدل في قـولـه تعـالى : ﴿**والسمـاء رفعهـا ووضـع الميـزان**﴾ (الرحمن : آية 7) فقد فسر ابن كثير الميـزان هنا بقوله : الميزان هنا : يعني العدل[17] غير أنهـا في هـذا الباب الخاص بعدل الله تعالى في الخلق وردت صفـة لمـا أوجده الـلـه تعـالى. وذلـك في قولـه عز وجل : ﴿**والأرض**

مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كلّ شيء موزون﴾. (الحجر، آية 19).

وأما الكلمة الثانية : فقد وردت في آيات أُخرى بمعنى العدل، وورود كلمة السواء بهذا المعنى معروف عند العلماء. ومن هؤلاء الحكيم الترمذي حيث يقول : «السّواء من التّساوي.. وإنما صار السواء «عدلا» لأن العدل هو الشيء الذي يكون وسطاً بين الشيئين، لا يميل إلى أحدهما دون الآخر، مثل لسان الميزان : هو في وسط العمود قائم. والوزن هو بلسان الميزان، والكفتان لحشو الميزان ففي أيتهما كثر الحشو وثقل : مال باللسان، وإذا استوى الحشوان في الكفتين : اعتدل الميزان أي استوى لسان الميزان، فلم تمل إحداهما دون الأُخرى»[18].

وبمجموع تلك الآيات التي وردت فيها تلك الكلمات ذات المعنى المتقارب حاولت استخلاص مفهوم العدل كما يظهر في الكون من خلال القرآن الكريم. وذلك على الشكل الآتي :

1) عدل الله تعالى في الخلق عموماً.
2) عدل الله تعالى في خلق السماء.
3) عدل الله تعالى في خلق ما على الأرض.
4) عدل الله تعالى في خلق الإنسان.

1 ـ عدل الله تعالى في الخلق عموماً

يقول الله تعالى : ﴿**سبّح اسم ربّك الأعلى، الذي خلق فسوّى**﴾[19] (الأعلى 1 2) وفي تفسير هذه الآية يقول سيد قطب : ﴿الذي خلق فسوى﴾ : الذي خلق كل شيء فسواه، فأكمل صنعته، وبلغ به غاية الكمال الذي يناسبه.. وهذه الحقيقة الكبرى ماثلة في كل شيء في هذا الوجود. يشهد بها كل شيء في رحاب الوجود من الكبير إلى الصّغير. ومن الجليل إلى الحقير، كل شيء مسوى في صنعته كامل في خلقته، وجميع الأشياء مجتمعة، كاملة التّناسق ميسّرة لكي تؤدّي في تجمعها دورها الجماعي، مثلما هي ميسرة فرادى لكي تؤدي دورها الفردي»[20].

2 ـ عدل الله تعالى في خلق السماوات

يقول الله تعالى : ﴿**أأنتم أشد خلقا أم السّماء، بناها، رفع سمكها فسوّاها**﴾. إن الله تعالى بقدرته المطلقة يهيمن على خلقه ويمنحه أشكاله وخصائصه على نحو من العدل والمساواة الدّقيقة. فهذه هي السماء على سعتها وضخامتها شاهدةٌ بعدل الله تعالى فكيف بمن دونها ؟!

يقول سيد قطب في خواطره حول تلك الآية : «السماء مرفوعة في تناسق وتماسك وهذه هي التّسوية، «فسوّاها»، والنّظرة المجرّدة والملاحظة العادية تشهد بهذا التّناسق المطلق. والمعرفة بحقيقة القوانين التي تمسك بهذه الخلائق الهائلة وتنسق بين حركاتها وآثارها وتأثّراتها، توسع من معنى هذا التّعبير، وتزيد في مساحة هذه الحقيقة الهائلة»[21].

3 ـ عدل الله جل جلاله في خلق النبات وما على الأرض.

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿**والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون**﴾ (الحجر 19).

قال الراغب الاصفهاني نقلاً عن بعض العلماء في كلمة «موزون» : ذلك إشارة إلى كل ما أوجده الله تعالى وأنه خلقه باعتدال»[22].

4 ـ عدل الله تعالى في خلق الإنسان

لقد جاءت الآيات في هذا المجال على ترتيب بديع يبين لنا كيف أن عدله جلّت قدرته قد رافق الإنسان في جميع مراحل تكوينه منذ مبدئه إلى أن صار رجلاً مكتمل البنية مستقل الكيان. وقبل عرض تلك المراحل على وجه التّفصيل نقرأ هذه الآية التي دلّت على خلق الإنسان بالعدل على وجه الإجمال.

قال تعالى : ﴿**يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم، الذي خلقك فسواك فعدّلك في أي صورة ما شاء ركّبك**﴾ (الانفطار 6ـ7ـ8).

وحول معاني هذه الآية الكريمة نقتبس من تفسير الشهيد سيد قطب بعض خواطره الرائعة، يقول : «إن خلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة السوية المعتدلة الكاملة

الشّكل والوظيفة، أمر يستحق التّدبّر الطويل، والشكر العميق، والأدب الجم والحب لربه الكريم، الذي أكرمه بهذه الخلقة، تفضلا منه ورعاية منه. فقد كان قادراً أن يركبه في أيّة صورة أُخرى يشاؤها، فاختار له هذه الصّورة السّوية المعتدلة الجميلة. وإن الإنسان لمخلوق جميل التكوين سوي الخلقة، معتدل التّصميم، وإن عجائب الإبداع في خلقه لأضخم من إدراكه هو، وأعجب من كل ما يراه حوله. وإن الجمال والسواء والاعتدال لتبدو في تكوينه الجسدي وفي تكوينه العقلي وفي تكوينه الرّوحي سواء. وهي تتناسق في كيانه في جمال واستواء»[23]. وإذا كانت هذه الآية قد دلّت على عدل الله تعالى في خلق الإنسان عموماً وإجمالاً، فإنا نجد في آيات أُخرى تفصيلاً من حيث المراحل التي رافق الإنسان فيها عدلُ الله الكريم حتى صار رجلاً سوياً. فقال تعالى مخبراً عن مرحلة خلق الإنسان الأول على شكل مستو جميل : ﴿**وإذ قال ربُّك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمإٍ مسنون، فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**﴾ (الحجر 28ـ29). ويقول سبحانه عن المرحلة الثانية وهي تسوية سلالة الإنسان الأول في الأرحام ﴿**الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السّمع والابصار والافئدة، قليلا ما تشكرون**﴾ (السّجدة 7ـ8ـ9).

وفي الأخير يقول الله سبحانه وتعالى مخبراً عن الرجل الذي كان يحاور صاحب الجنّتين المغرور : ﴿**أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاكَ رجلا**﴾ (الكهف 36) ويلاحظ في هذه الآية كيف جمعت تلك المراحل الثلاثة !.

وإلى هذا الحدّ نكون قد عرفنا كونه تعالى قائماً بالعدل، وكيف تجلّى عدله في خلقه، وخاصة في خلق السموات والأرض والإنسان وهي أبرز الخلائق التي يعاينها كل إنسان كيفما كان مستواه العلمي، إذ أن مجرّد النّظر والملاحظة البسيطة كافٍ لمشاهدة العدل في تلك الخلائق، فكيف بالتّفكّر العميق والتّفحّص الدقيق !!

ونأتي الآن إلى المظهر الثاني من مظاهر العدل.

ذلك هو عدل الله عزّ وجل في أحكامه.

ثانياً : عدل الله عز وجل في أحكامه

مقدمة :

يقول الله تعالى : ﴿**وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا**﴾ (الأنعام ـ 15).

لقد جاء العدل في هذه الآية الكريمة صفة للقرآن الكريم. وذلك على قول قتادة كما حكاه القرطبي قال : «الكلمات هي القرآن، لا مبدّل له، لا يزيد فيه المفترون ولا ينقصون أي فيما وعد وحكم، لا رادّ لقضائه ولا خلف في وعده»[24].

إن هذه الآية بتمامها ووضوحها، مضافة إلى ما سبق من آيات العدل كافية للدّلالة على عدله جل جلاله وكون ذلك صفة له سبحانه وتعالى، وظاهرة في فعله جلّت قدرته. وقد كان ذلك كافياً لاستقبال أحكام القرآن الكريم، وفي العقل قناعةٌ وتسليمٌ بعدالتها دون أن تقترن بتعابير العدل والقسط. ولكن الله تعالى برحمته الواسعة ـ ضمّن كتابه الكريم آيات تخبر عن نماذج من عدله في الجزاء في الدّنيا وفي الآخرة، وفي تنظيم الحياة البشرية. أي إنه سبحانه من صفته العدل، وقد رأى الناس ذلك فعلاً، ويرونه فيما أنزله من أحكام تشريعية تقويمية، وسيرون ذلك أيضاً في الآخرة يوم الحساب. فأخبر القرآن الكريم عن عدله في جميع الأحوال، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وإن كان هذا التقسيم الزّمني منطبقاً على الخلق الذين نفذ فيهم عدل الله عز وجل، فإنه جل وعلا قائم فوق الزمن، فهو عادل أزلا وأبدا. وسوف نرى ـ بإذن الله تعالى ـ في مبحث الظلم ـ تأكيد هذه المسألة حيث أخبر القرآن الكريم أن الله تعالى لا يظلم، ولم يظلم، ولن يظلم.

فإذا نحن استعرضنا الآيات التي وردت فيها ألفاظ العدل والحق والقسط والسّواء والميزان. لنتعرف على تلك النماذج من أحكام الله العادلة وجدناها على التّقسيم الآتي :

1 ـ آيات تدل على حكم الله العادل في إهلاك القرى الظالمة التي مضت.

2 ـ آيات تدل على حكم الله العادل يوم القيامة في

الحكم بين الناس ومجازاتهم.

3 ـ آيات تدل على حكم الله العادل في تنظيم الحياة البشرية في الدنيا.

1 ـ فأما بالنسبة للأولى فمن مثل قوله تعالى مخبراً عن إهلاكه لأهل إحدى القرى الظالمة : ﴿**فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين**﴾. قال ابن كثير : أي وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم.[25]

2 ـ وأما الآيات من القسم الثاني : فإنها تعرض علينا عملية الجزاء يوم القيامة وما فيها من العدل والدقة في الحساب وما يرافقها من الأحوال والمشاهد التي تزيد في بيان عدله جل وعلا في مجازاة عباده. وقد جاء التعبير عن ذلك بلفظي الحق والقسط، وفيما يلي تفصيل ذلك :

قال الله تعالى : ﴿**والله يقضي بالحق والذين تدعون من دونه لا يقضون بشيء، إن الله هو السميع البصير**﴾ (غافر ـ 20).

هذه الآية وردت في سياق الحديث عن يوم القيامة، وفي تفسيرها يقول سيد قطب : «الله وحده هو الذي يقضي في هذا اليوم قضاءه الحق، وآلهتم المدّعاة لاشأن لها ولا حكم ولا قضاء، والله يقضي بالحق عن علم وعن خبرة، وعن سمع ورؤية، فلا يظلم أحداً ولا ينسى شيئا».[26]

ثم يزداد هذا المعنى بياناً عندما نعلم أن وسيلة تقييم الأعمال قائمة على العدل وأن عملية التقييم نفسها جارية بالعدل والدقة المتناهية. وأن كتاب الأعمال نفسه ينطق بالحق. وهذه المعاني تتبين على التوالي في هذه الآيات :

قال الله عز وجل : ﴿**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين**﴾ (47 ـ الأنبياء).

وقال تعالى في وصف عملية الوزن : «والوزن يومئذ الحق». قال الراغب الأصفهاني في هذه الآية إنها «إشارة إلى العدل في محاسبة الناس».[27]

وقال تعالى يصف لنا بعضا من مشاهد يوم القيامة : ﴿**وترى كل أمة جاثية، كل أمة تدعى إلى كتابها، اليوم تجزون ماكنتم تعملون، هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق، إنا كنا نستنسخ ماكنتم تعملون**﴾. إنه كتاب الأعمال ينطق بالحق ويستحضر جميع الأعمال من غير زيادة ولا نقص.[28]

فحصل مما سبق أن الله عادل في قضائه، وأن الميزان قائم على العدل، وأن الوزن جار على العدل كذلك وأن كتاب الأعمال ينطق به كذلك. فهذه مقدمات نفهم على ضوئها الآيات التاليات التي تعرض علينا عملية القضاء وتنفيذ حكم الله العادل.

ـ قال الله تعالى : ﴿**قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق، وهو الفتاح العليم**﴾ (26 سبأ).

ـ وقال تعالى : ﴿**ولكل أمة رسول، فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون**﴾.

ـ وقال سبحانه : ﴿**ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضي بينهم بالقسط، وهم لايظلمون**﴾ (54 ـ يونس).

ـ وقال عز من قائل : ﴿**وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيئين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون**﴾ (69 ـ الزمر).

ـ وقال عز وجل : ﴿**وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين**﴾ (75 ـ الزمر).

ـ وقال سبحانه وتعالى : ﴿**إليه مرجعكم جميعاً، وعد الله حقاً، إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط**﴾ (4 ـ يونس).

فهذه ست آيات دلت على عدل الله تعالى يوم القضاء، وقد جاء التعبير عن ذلك بلفظ الحق في ثلاث آيات، وبلفظ القسط في الآيات الثلاثة الأخرى. وعلمنا من خلالها أن الله تعالى يقضي بين الخلائق عموماً بالعدل، وهذا العموم يدخل فيه ـ والله أعلم.

القضاء بين المسلمين الذين كان لبعضهم حقوق لدى البعض. وعلمنا أيضا أن الله تعالى يقضي بين الرسل وأتباعهم وبين الكافرين بالعدل، ثم علمنا أخيراً أن الله عز وجل يجزي عباده المؤمنين بالعدل «والجزاء الأوفى».[29]

وأما الآيات من القسم الثالث. والدالة على أحكام الله العادلة في تنظيم الحياة البشرية فهي كثيرة العدد وواردة في عدة مجالات وهذا ماسنراه ـ بمشيئة الله وتوفيقه ـ في مقال آخر وذلك عن الحديث عن عدل الإنسان، وأنه متوقف على اتباع أحكام الله عز وجل.

يتبع

الهوامش :

1) لسان العرب، عدل.
2) تاج العروس / عدل.
3) معجم مفردات القرآن، تحقيق نديم مرعشلي ص. 336.
4) تاج العروس/ عدل.
5) لسان العرب/ عدل.
6) المصدر السابق.
7) مدارج السالكين. ص 235 ج/1 وتتمة الكلام : «بل من أعلام نبوة محمد ﷺ : أنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر. ويحل لهم الطّيبات ويحرم عليهم الخبائث. فإن ما يأمر به تشهد العقول الصحيحة حسنه وكونه معروفاً. وما ينهى عنه تشهد قبحه. وكونه منكراً، وما يحله تشهد كونه طيبا وما يحرمه تشهد كونه خبيثاً، وهي دعوة جميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وهي بخلاف دعوة المتغلبين المبطلين والكذابين والسحرة فإنهم يدعون إلى ما يوافق أهواءهم وأغراضهم من كل قبيح ومنكر وبغي وإثم وظلم».
8) قال رسول الله ﷺ : «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحدا لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر» رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة. وقد ورد ذكر الأسماء الحسنى باللفظ والعدد في حديث آخر.
9) مع الله في أسمائه الحسنى وصفاته العليا. عبد الرزاق نوفل (ص 105).
10) المرجع نفسه ص 211.
11) مفاتيح الغيب ص 220/ج/7.
12) المصدر نفسه ونفس الصفحة.
13) تاج العروس، ص. 11 ـ ج/8.
14) الذريعة إلى مكارم الشريعة ـ للراغب الاصفهاني ص 241.
15) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للإمام الغزالي. ص. 109.
16) تفسير القرآن العظيم ص 271 ج/4.
17) تحصيل نظائر القرآن ص 27 و 28.
18) قال الراغب الأصفهاني في معجم المفردات ص. 257 «تسوية الشيء جعلَه سواء».
19) في ظلال القرآن ص. 3883 و 84 ج/6.
20) السابق ص 3816، ج/6.
21) معجم المفردات ص. 559.
22) في ظلال القرآن ص. 3848 ج/6.
23) الجامع لأحكام القرآن ص. 7/71.
24) تفسير القرآن العظيم ص. 246 ج/3. ويلاحظ أن الآيات في هذا القسم وبتلك الألفاظ الدالة على العدل قليلة. غير أن التعبير عن عدل الله تعالى في إهلاك القرى الظالمة جاء بنفي الظلم عنه تعالى، على نحو مستفيض.
25) في ظلال القرآن ص. 3074. ج/5.
26) معجم مفردات القرآن ص. 559.
27) انظر ابن كثير. ص. 153 ج/4.
28) هذه الزيادة لابن كثير. ص. 408/ج/2.

المصادر والمراجع :

1) القرآن الكريم.
2) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ـ مجد الدين بن يعقوب الفيروزابادي اللغوي ـ طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ مصر ـ 1384 هـ ـ 1964م.
3) تفسير القرآن العظيم ـ عماد الدين اسماعيل ابن كثير. دار الفكر ـ بيروت 1404 هـ ـ 1984م.
4) تحصيل نظائر القرآن ـ الحكيم الترمذي ـ تحقيق حسني نصر زيدان ـ الطبعة الأولى (1390 هـ ـ 1970م).
5) تاج العروس من جوهر القاموس ـ الإمام الحسني الواسطي الزبيدي.
6) الجامع لأحكام القرآن. ـ الإمام القرطبي. تحقيق أحمد عبد العليم البردوني. الطبعة الثانية 1373 هـ ـ 1954م.. دار الكتب المصرية.
7) الذريعة إلى مكارم الشريعة. الراغب الأصفهاني ـ تحقيق عبد الهادي موسى الفولاقي. دار الكتب العلمية.
8) في ظلال القرآن. الشهيد سيد قطب. الطبعة التاسعة الشرعية 1400 هـ ـ 1980م. دار الشروق.
9) لسان العرب ـ ابن منظور ـ دار صادر (دار الفكر بيروت).
10) مع الله في أسمائه الحسنى وصفاته العليا. عبد الرزاق نوفل ـ المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع ـ القاهرة.
11) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. ـ الإمام أبو حامد الغزالي، المطبعة الكاثوليكية (بيروت ـ 1971).
12) مفاتيح الغيب الإمام محمد فخر الدين الرازي ـ المطبعة البهية المصرية الطبعة الأولى ـ (1357 هـ ـ 1938م).
13) معجم مفردات ألفاظ القرآن. تحقيق نديم مرعشلي ـ دار الفكر للطباعة والنشر.
14) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. محمد فؤاد عبد الباقي. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ الطبعة الثانية 1401 هـ ـ 1981م.
15) مدارج السالكين ـ ابن قيم الجوزية ـ تحقيق محمد حامد الفقي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ 1972م ـ 1392 هـ.

مَاوَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى

للأُستاذ مفضل فلواتي

مدخل :

قد سبق في حديث البخاري المروي عن عائشة رضي الله عنها، إشارة إلى فترة الوحي بعد نزول الآيات الأُولى من سورة العلق **﴿ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَن تُوُفِّي وَفَتَر الْوَحْيُ﴾**.

وقد اختلف في تحديد المدة الزمنية لهذه الفترة، قال المقريزي : فقيل ان فترة الوحي كانت قريبا من سنتين، وقيل : كانت سنتين ونصفا. وفي تفسير عبد الله بن عباس : كانت أربعين يوماً، وفي كتاب معاني القرآن للزجاج كانت خمسة عشر يوماً، وفي تفسير مقاتل ثلاثة أيام ورجحه بعضهم، وقال : لعل هذا هو الأشبه بحاله عند ربه.[1]

قال الأُستاذ محمد منير الغضبان : «ونلاحظ أن المقريزي رجح الآراء التي تعتبر فترة انقطاع الوحي فترة قصيرة، تدور حول الأربعين **والخمسة** عشر، والثلاثة من الأيام، بينما ساق الأقوال الأولى عن السنتين والسنتين والنصف دون إسناد.

وفي الرأي الثاني يزول الإشكال الكبير حول هذه الفترة التي لا نجد لها ذكرا أو تاريخاً، ولو حسبت هاتان السنتان والنصف من المرحلة السرية لكانت مرحلة الدعوة فيها لا تعدو سنة أو نصف سنة، ومن المستبعد جدا أن يكون ذلك..[2]

وكثرة المرويات المنقولة بسند صحيح **حول** هذه الفترة المطلقة أو المحددة بدون تعيين نقطة البداية والنهاية فيها ساعدت على ظهور الإشكال مع فسح المجال للاجتهاد في تبين أوجه الصواب فيها، فيكاد لا يخلو تفسير من التعرض لهذه الفترة أثناء شرح سور **«المدثر» «والمزمل»** **«والضحى»** سواء في التفسير أو في كتب السنة، مع نوع من الخلط ـ أحياناً الموقع في الاضطراب. ويظهر أن ابن حجر وضع يده على مفتاح الإشكال بقوله : **«والحق أن الفترة المذكورة في سبب نزول والضحى غير الفترة المذكورة في ابتداء الوحي، فإن تلك دامت أياماً، وهذه لم تكن إلا ليلتين أو ثلاثاً، فاختلطتا على بعض الرواة»**[3] وبالاستقرار على تأخر الوحي وفترته مرتين ـ إن لم يكن أكثر ـ يزول الإشكال.[4]

فما هي الظروف المحيطة بالفترتين ؟

أورد البخاري وغيره حديثا مرويا عن جابر يبين فيه كيفية استئناف نزول الوحي بعد الفترة الأُولى حيث قال ﷺ ـ وهو يحدث عن فترة الوحي ـ : **«بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرُعبت منه، فرجعت، فقلت : زملوني، فأنزل الله تعالى : ﴿ياأَيُّهَا الْمُدَّثِّرْ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾** إلى قوله تعالى : **﴿والرِّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ فحمي الوحي وتتابع»**.[5]

فكانت فترة التأخر هذه من أصعب الفترات في حياة الرسول ﷺ، حيث أخذ الحزن فيها من نفسه مأخذه، حتى غدا مرارا كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، ولكنها لم يكن لها وقع في غير البيت النبوي الكريم، لأن أمر الدعوة لما يبدأ بعد. إلا أن المناخ المحيط برسول الله ﷺ عن قرب تغير تغيرا كبيراً بعد نزول آيات الإرسال التي أعقبها نشاط دعوي هادئ غير مرئي بوضوح للأبعدين ولكنه ليس غائباً عن الأقربين المتتبعين لحياة النبي العامة من كثب بشيء من الإعجاب، وبكثير من الحسد المكتوم.

وبعدما قطعت الدعوة النبوية أشواطاً في مرحلة أولية يصعب تحديد زمانها فتر الوحي مرة أخرى لهذه الأسباب التي ذكرتها كتب السنة :

روى البخاري بسنده قال : «**اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثا. فجاءت امرأة فقالت : إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثا، فأنزل الله عز وجل ﴿والضحى والليل إذا سجى ماودعك ربك وما قلى﴾**.

وفي رواية أخرى له : قالت امرأة يارسول الله ما أرى صاحبك إلا أبطأك، فنزلت ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾[6]

أما سبب الشكاية فقد روى الترمذي ومسلم عن جندب قال : كنت مع رسول الله ﷺ في غار فدميت إصبعه، فقال النبي ﷺ : هل أنت إلا اصبع دميت، وفي سبيل الله مالقيت، قال : فأبطأ عليه جبريل عليه السلام، فقال المشركون : قد وُدِّع محمد. فأنزل الله **﴿ماودعك ربك وما قلى﴾**،[7] **وهناك أسباب أخرى ذكرت لا فائدة من التعرض لها.**

أثر فترة الوحي في نفس الرسول ﷺ :

كان لهذه الفترة وقع داخل البيت النبوي وخارجه، ففي داخل البيت النبوي كانت أم المومنين خديجة رضي الله عنها على رأس المتأثرين إشفاقاً وتوجعا لما يعانيه الرسول ﷺ من شدة الألم لهذا التأخر. فأكثر شراح السنة يذهبون إلى أن المرأة المذكورة في الرواية الثانية للبخاري هي خديجة لأنها قالت : «يارسول الله» وهذا يعني الإيمان به، ثم قالت : «صاحبك» تقصد به جبريل، ثم قالت : «أبطأك» أي صيرك بطيئاً في القراءة، لأن بطء جبريل في الإقراء يستلزم بطء الرسول في القراءة، وهو تهوين من شدة وقع التأخر على رسول الله ﷺ، وتعليل له بأشياء لا تتصل بالقِلى والبغض والترك لا من قريب ولا من بعيد، وهو تبرير واعتذار في نفس الوقت عن تأخر زيارة جبريل (صاحبك) عليه السلام، لأن هذا الصاحب ـ ونعم الصاحب ـ الذ يعرف طريقه بإذن ربه إلى هذا البيت الكريم لا يمكن أن يترك، وإنما يتأخر بحكمة في عالم الغيب عند الحكيم الخبير، وهذا خط يتسق تماما مع نظرة المومنة الأُولى للنبوة والرسالة والدعوة، فقد امتلأت نفسها ثقة بالله ورسوله وجبريل، ولا يمكن أن تتزعزع هذه الثقة لحادث بسيط مثل هذا التأخر الغائب حكمته.

لكن الذي يحفر في النفس جروحا غائرة شماتة الحاسدين الذين وجدوا في هذا الفتور فرصتهم الذهبية للتنفيس عن حقدهم وغيظهم وترويج بضاعة التشفي والكيد المبكر في أسواق السخرية والاستهزاء بالدين الذي اختار الله له محمد نبيا ورسولاً. فلا عجب أن يفعل هذا فعله في نفس الرسول ﷺ، ويحرمه لذة الشعور بطعم الحياة في ظل الحرمان من نعمة الاتصال بالله، والأنس بلقاء جبريل، والحرمان من الوحي ينبوع الهداية ومبعث الأمل والرضى والطمأنينة واليقين. إنه أمر أشد من الاحتمال من جميع الوجوه.

واللافت للنظر في الرواية الأُولى للبخاري أن تكون المرأة أول من يرفع لواء الكفر، ويشهر سلاح المقاومة والكيد للدعوة بموازاة مع المومنة الأُولى. إنه لأمر يدعو للتأمل وعدم نسيان دور المرأة في تصريف الأَحداث وتوجيهها، فإهمال توظيفها في الخير سيقودها حتما إلى العمل في الجهة الأُخرى.

والرواية وإن لم يكن فيها تصريح باسم المرأة، فشراح السنة لايداخلهم شك في أنها الحوراء بنت حرب أخت أبي سفيان وزوجة أبي لهب التي نزل فيها قول الله تعالى : **﴿وامرأته حمالة الحطب﴾** خصوصا وقد ورد التصريح باسمها في بعض الروايات. أما العبارات الدالة على الغيظ المفصح عن نفسه، والاستهزاء المسف فهي «شيطانك» «قد تركك» كل ذلك قد قرن بالأمل الحاقد في انقطاع هذه النعمة التي اعتبرتها نقمة على مركزها ومركز زوجها وأسرتها الاجتماعي. وإلا ماذا يعنيها من أمر محمد ﷺ إذا كان هذا الذي يأتيه شيطان ؟! أليس هذا مما يدعو للسرور وإهمال شأنه وتركه (للشيطانه) يفعل به ما يشاء ؟! إن الأمر في نظرها أخطر من ذلك وأعمق دلالة، لأنه يحمل لها وللمشركين الذين قاسموها نفس الفرحة **﴿قَدْ وُدِّعَ مُحَمَّد﴾** نذرا معتمة في المستقبل المرئي لها ولهم.

وصورة الغيظ المرسومة في الحديث لهذه المرأة

وقرنائها من المشركين ليست بشيء إذا قيست بالتصوير القرآني لنفسية هؤلاء وهم يستقبلون الوحي من فم الرسول ﷺ. انظر إلى هذه الصور الناطقة ﴿وإنْ يَكَادُ الذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ - القلم 51 - ﴿وَإذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ الحج 72 - أما الدافع إلى هذا فهو التعجب الحاسد ﴿أأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ - ص 8 - ﴿أَهَذَا الذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً﴾ الفرقان 41 - ؟؟!! أما المنطق المغذي لهذا الدافع فهو هذا الاقتراح السخيف على الله تعالى وقَالُوا : لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ - الزخرف 31.

نسمات الرحمة والرِّضى :

إذا كانت الآيات الأُولى من سورة المدثر نزلت لتعيين النبي في وظيفة الرسالة بصفة رسمية، وتكليفه بأداء الأمانة التي شوقه لها طول الانتظار خلال فترة الوحي الأُولى، فإن سورة الضحى نزلت بعد فترة أخرى لغرض آخر يتصل بنفس الرسول ﷺ وما تجمع فيها من آلام وأحزان.

فهذه السورة - كما يقول سيد رحمه الله - بموضوعها، وتعبيرها، ومشاهدها، وظلالها، وإيقاعها، لمسة من حنان، ونسمة من رحمة، وطائف من ود، ويد حانية تمسح على الآلام والمواجع، وتنسم بالروح والرضى والأمل، وتسكب البرد والطمأنينة واليقين.

إنها كلها خالصة للنبي ﷺ، كلها نجاء له من ربه، وتسرية وتسلية وترويح وتطمين، كلها أنسام من الرحمة، وأنداء من الود وألطاف من القربى، وهدهدة للروح المتعب والخاطر المقلق والقلب الموجوع[8] ولهذا كان احتفاء الرسول ﷺ بهذه السورة - خاصة - عظيما، فقد روي أنه كبر عقب نزولها وروي أنه قال : لا إله إلا الله، والله أكبر، ولله الحمد[9] مما يدل على الأثر الذي أحدثته في نفس النبي المتطلع إلى رضى ربه.

صورة واضحة عن حياة الرسول قبل البعثة :

إذا كانت سورة الضحى تحمل في طياتها المعاني السابقة وأكثر، فإنها تنفرد بميزة أخرى لا توجد في الكثير من الآيات التي نزلت لمناسبات حدثت بعد البعثة، وهي دلالتها على شخصية الرسول قبل البعثة، ذلك أن السورة تعتبر من أقوى وأوضح النصوص القرآنية في نشأة النبي وحياته إلى مبدإ الوحي.

إذ تقرر الآيتان الأُولى والثانية كما يقول الأُستاذ دروزة .

أ - ما هو من البدائة المعروفة اليوم من أن النبي كان يتيماً، وأنه نشأ في حضانة رحيمة، من جده، ثم من عمه أبي طالب، وتعبير «فآوى» يتضمن تقرير هذه الحضانة بالصفة التي وصفناها والتي استمرت حتى انقلبت إلى حماية قوية من عمه كما يدل معنى «الإيواء المعبر به عن هذا المعنى في آيات أخرى ﴿فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾ الأنفال 26 ﴿والذِين آوَوْا وَنَصَرُوا﴾ الانفال 72.

ب - انه كان فقيراً فأغناه الله. وأخبار السيرة التي لا اختلاف في جوهرها ولا تناقض تذكر ظروف ذلك على ما هو معروف من صلة السيدة خديجة رضي الله عنها عن طريق عمله لها في التجارة واقترانه بها نتيجة هذه الصلة.

وإذا كان ثمة شيء يذكر على هامش ذلك فهو ما نعتقده من أن هذه الصلة كانت فاتحة عهد جديد. بل حادثا حاسماً في حياة الرسول ﷺ كان له أكبر الأثر في الاتجاه النهائي الذي اتجه إليه، وتهيأت به نفسه وقواه الروحية لتلقي الرسالة العظمى والنهوض بها. إذ أغناه الله عن الضرب في الارض في سبيل الرزق، فاستطاع أن يتمتع في جانب السيدة بالحياة العائلية الهنيئة المطمئنة من جهة، وأن يتفرغ من جهة أخرى بنفسه وقلبه وفكره وروحه للتدبر في ملكوت الله وآلائه، والقيام برياضته أو اعتكافاته الروحية فارغ القلب من هموم المعيشة وضروراتها. ولعلنا لانتجوز إذا قلنا أن الإشارة القرآنية إلى هذا الحادث بالأسلوب الذي وردت فيه تتضمن تنويها، أو بالأحرى تقريراً لاستحقاق الحادث للتنويه.

وننبه على أن روايات السيرة لم تذكر أن النبي ﷺ قام بأي رحلة تجارية، أو شغل نفسه بأي مشغلة دنيوية كسبية بعد اقترانه بالسيدة خديجة رضي الله عنها، وكل ماذكرته فهو أخبار رياضاته واعتكافاته، ثم أخبار قليلة

أخرى، أهمها: حادث التحكيم في وضع الحجر الأسود في ركن الكعبة وفي هذا توكيد لصحة ما نقرره.

وإنه ليكفي المرأة العربية فخرا أن يكون للسيدة خديجة هذا الأثر العظيم في حياة السيد الرسول ﷺ، والذي استمر عظيما بعد بعثته أيضا إلى أن توفاها الله، وهو أثر نوهت به الأحاديث المروية وخاصة في بدء بعثته، وما كان من ثنائها عليه وتشجيعها له وتثبيتها إياه، وإيمانها بكل ما أخبر به، ثم ما كان من تفجع السيد الرسول على وفاتها وأثرها في نفسه وفي سيرته في أواخر العهد المكي.

أما الآية الثانية أي ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ فإنها تقرر فيما نعتقد حالة ذات خطورة ودلالة كبيرتين في صدد نشأة النبي ﷺ الروحية.[11]

قال النسفي في تفسير هذه الآية: (أي وجدك غير عالم، ولا واقف على معالم النبوة، وأحكام الشريعة وما طريقه السمع (فهدى) أي فعرفك الشرائع والقرآن... ولا يجوز أن يفهم به عدول عن حق ووقوع في غي، فقد كان عليه الصلاة والسلام من أول حاله إلى نزول الوحي عليه معصوماً من عبادة الأوثان، وقاذورات أهل الفسق والعصيان﴾.[12]

ويساعد على تفسير الآية بالمعنى المشار إليه ما تقرره الآيات الكثيرة بهذا الصدد، فقد قال تعالى: ﴿**نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين**﴾ يوسف 2 ﴿**ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان**﴾ الشورى 52 - ﴿**وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم**﴾ النساء - ﴿**قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين**﴾... الأنعام 161 - إلى غير ذلك من الآيات التي تنفي عن رسول الله ﷺ علمه بالقرآن وأحكام الشريعة، كما تنفي عنه الضلال بمعنى «الاندماج» في العقائد والتقاليد الشركية التي ثبت عزوف النبي ﷺ عنها عزوفاً كاملاً في جميع أطوار نشأته إلى أن بعثه الله تعالى، وكتب السنة الصحاح مليئة بالأحاديث الصحاح المقررة لعصمة النبي من أوضار الجاهلية وارجاسها. قال أبو نعيم نقلا عن شيخه بعد ذكر الأحاديث الدالة على الحفظ والعصمة: «ومما عظم به ﷺ وحرس منه ألا يتعرى كفعل قومه وأهله، وإذا حفظ من التعري، فما فوقه أولى أن يعصم وينهى عنه».[13]

وتفسير «ضال» «بحائر» يحمل معنى الآية على أن المقصود الحيرة في الطريق التي يجب أن يسار فيها إلى الله وعبادته على أفضل وجه.[14] وهو المعنى الذي يشهد له ماورد في السيرة والسنة من رفض بعض عقلاء العرب من الجاهلية التسليم بالأوضاع الشركية المنسوبة كذبا إلى ابراهيم عليه السلام الأمر الذي دفعهم إلى البحث عن البديل المزيل لحيرتهم، وأفضل من يترجم هذه الحيرة زيد ابن عمرو الذي كان يقول: «يا معشر قريش، والذي نفسي بيده ما أصبح منكم أحد على دين ابراهيم غيري، ثم يقول: اللهم **لَوْ أعلم أيّ الوجوهِ أَحَبٌّ إليك عَبَدتُك بِهِ، ثم يسجد على راحلته**»[15] ولكن هذا البديل المنشود، وهذا الوجه المحبوب المرضي عند الله لم يأت إلا يوم إعداد الرسول ﷺ لتقبله والدعوة إليه بإذن الله وهدايته إلى العبادة والشريعة اللتين لا تتقرر إن بالأماني الخادعة، وإنما بالوحي الرباني الفصل.

تأمين المستقبل الدعوي:

تأمل الماضي واسترجاع نقط العناية الربانية فيه، ومحطات التسخير البشري للاحتفاء باليتيم وضيعاً، وطفلاً، وشابا، وكهلا خير زاد للتسلية والتسرية والثقة المطلقة بمستقبل النعمة التي أحدث فتور عطائها انزعاجا كبيرا لدى رسول الله ﷺ، وخير زاد للاطمئنان على دوامها الشامل دنيا وأخرى، مع الاطمئنان إلى رضى الله وتأييده وكفايته في نفس الوقت شر كل مستهزئ حقود ناقم.

وهي تربية حكيمة من الحكيم الخبير بهواجس النفس وتخوفاتها، حتى يبقى تذكر الماضي زادا له قيمته الكبرى في تحديد مسار الدعوة وتبين ملامحها، وذلك هو الدرس العظيم للعاملين في حقل الدعوة كي يأخذوا من أحداث السيرة الزاد الضروري لمواجهة الصعاب التي تجابههم، فلا ييأسوا ويفتروا عن مقارعة أشواك الباطل بجميع ما لديهم من أسلحة الصبر والعزم، والثقة المطلقة بنصر الله، وتأمين الفوز في الآخرة الذي هو حجر الزاوية في الأمر كله.

فالوعد الذي تضمنته الآية ﴿**ولسوف يعطيك ربك فترضى**﴾ هو للرسول أولا، وهو أيضاً بشرى بشرى مفتوحة بالتبع شاملة لكل من اختار لنفسه السير على منهاج النبوة. فكل مالم يرد فيه نص بالتخصيص للرسول هو للمومنين أيضا من باب أولى. فكم من أزمان مرت والدعوة يتيمة، يعمل أكابر المجرمين على إقبارها، ولكن الله تعالى آواها في مختلف البقاع، وأغناها بالشهداء من المومنين، والانسحاق للمجرمين، حتى أطل عصر الصحوة الذي هو نعمة من الله تعالى تستحق التحدث بها ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾.

الهوامش :

1) امتاع الأسماع للمقريزي 1/ص 15، تحقيق محمود شاكر، ونشر عبد الله ابراهيم الأنصاري، طبع على نفقة إدارة الشؤون الدينية بدولة قطر انظر هامش المنهج الحركي للسيرة النبوية للأستاذ محمد منير الغضبان 20/1.
2) المنهج الحركي للسيرة النبوية 20/1، وانظر فتح الباري 27/1.
3) فتح الباري 710/8، والإشارة بتلك الفترة المذكورة في بدء الوحي لأنها تقدمت عنده في المجلد الأول وغيره.
4) الإشكال يكمن في عدد الفترات الأولى، أما بعد هذه المرحلة فقد ثبت انقطاع الوحي عندما سئل الرسول ﷺ عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، وتأخر الوحي كذلك في قصة الإفك، ولكن ذلك لايوجد خلاف كبير فيه.
5) صحيح البخاري كتاب : بدء الوحي.
6) التاج الجامع للأصول 291/4.
7) المرجع السابق 292/4.
8) الظلال 600/8.
9) التاج الجامع للأصول 292/4 وابن كثير تفسير.
10) سيرة الرسول صور مقتبسة من القرآن الكريم 22/1 ـ 23 ـ 24.
11) المرجع السابق.
12) الأساس في التفسير للأستاذ سعيد حوى 6569/11.
13) دلائل النبوة 188/1.
14) سيرة الرسول لدروزة 24/1.
15) متن البخاري بحاشية السندي، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل 317/2. والسيرة النبوية للذهبي 38، واللفظ منه رواية عن أسماء بنت أبي بكر.

«الإسلام يزحف»

«أيها الرجل الأبيض : أنصت»

L'Islam en marche
«Ecoute, Homme Blanc»

لو أطلق سراح جميع الرهائن، وسارت السفن آمنة فوق مياه الخليج، والتحق آية الله والعقيد بربهما،[1] سيكون الارتياح بواشنطن والقدس،[2] بباريس ولندن،... إلا أن ذلك لن يغير من الصراع شيئاً....

إن الغرب يرفض الأخذ بالأبعاد الحقيقية للصراع، مستشعراً أنه لو أعطاه ما يستحق من الاهتمام لأرغم نفسه على مراجعة مذهبه التمتعي. فلقد كمُن الحل البارحة في إنزال قوات «المارينز» في عرض شمال طرابلس، أما اليوم، محمولاً بإحدى أمواج القعر الضخمة.. والتي تهزه دوريا ـ فإن الإسلام يشهد صحوة ناشئة من أعماق ذاته. بل أكثر من هذا، إنه مطعَّم بإحساسات الشعوب الكادحة، وبذلك تمتزج الرغبات الدينية مع عدم الرضى المادي بشكل قوي، موصولة أحياناً بالقلق على المستقبل.

من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي (من المغرب إلى أندونيسيا)، ومن الشمال إلى الجنوب (من الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفياتي إلى إفريقيا السوداء)، إنها صحوة الإسلام. إسلام هائل عدداً (ألف مليون من الأتباع)، وهائل بشكل أكبر نظراً للسهولة المدهشة لعقيدته : «طاعة أمر الله وإرغام العصاة على طاعته». إسلام شاب بتركيبة شعوبه المتزايدة عدداً؛ بيد أن الغرب الذي «خنق أولاده في سريره» (a étouffé ses fils dans son lit)، يهرم دون تجديد. إسلام يتلقى مساعدة قطيعة من طرف نسائه، المرعوبات من مجتمع تقوده لا أخلاقية الغرب القاتلة للضعفاء. إسلام، ككل حركة، لن يفلح إلا حين يواجه معارضاً يكبره. ولقد لقي معارضه هذا متمثلا في الغرب، ثم لكونه مدمجاً لكفاحه مع طموحات العالم الثالث، فقد غيَّر هذا الكفاح ليجعل منه كفاح القرن.

إن الغرب وحده هو الذي يستطيع أن يمكِّن الإسلام من أن يجتمع ويتوحد. لماذا ؟ لأن الغرب، الذي استهلك قطيعته مع الله، يُعد فضيحة عند المؤمنين بالعالم أجمع. إنه يؤكد أكثر فأكثر طبيعته الحقيقية «إن الغرب ملحد في الأعماق» (Alain)،بيد أن الشرقي رجل دين، يرفض إبطال القداسة عن الكون معتبرا ذلك تشويها. لذا فإن تصفية الأمبراطوريات الاستعمارية مستمرة أيامنا هذه، وهذه

مرحلتها الثانية : استئصال الإرث الأخلاقي الذي خلفه الغرب، المتابع بهيمنته الثقافية واستغلاله الاقتصادي.

هذا هو السبب العام. فما هو ياترى المفجر الخاص ؟ هو آلاف اللاجئين ذكورا وإناثاً من الفلسطينيين، المحوشين البارحة في مخيمات اللاجئين، والمنتشرين اليوم كاللهيب في العالم الإسلامي الضخم بعد إحداث دولة إسرائيل سنة 1948.[3]

كل طموحات الإنسان، المنكرة بسداجة والمبعدة تلقائيا من طرف الماركسية الإلحادية، استرجعها الإسلام في صراعه، وأدمجها ضمن مطالبه. ولذلك، فإن الثورة ليست ثورة بعض الشعوب المعنية بالأصولية الإسلامية فقط، ذلك أن رفض الغرب كان يمكن لإفريقيا السوداء، أو أمريكا اللاتينية، أو الشرق الأقصى تصوره وصياغته. لكن، لن يمكنها بتاتاً تعميم خطابه على العالم أجمع.

من أجل ذلك لابد من فلسفة، لابد من دين، الذي بكونه متعاليا على الحدود المفروضة من طرف أوروبا، اتضح أنه قادر على التوحيد في موج واحد من شعوب مختلفة بألوانها، وعلى أن يجمعها تحت لواء واحد، وأن يوجهها بشعاراته. إننا ـ ولنعترف بذلك ـ أمام حركة رائعة في التاريخ.

بعد عشرات السنين، إن لم تكن قروناً من النوم وأحياناً من الإذعان، هاقد جاء وقت الثأر وأحياناً وقت الحماسة ونشوة النصر حتى أنه ـ في هذا التحالف المختلط ـ تتعارض الطموحات وتتنافس العقائد.

ففي البلدان التي فيها إما الشمس أو الظل، إما المؤمن أو الكافر، تكون الرؤية سهلة : الكل أبيض أو أسود. الشر أو الخير يجسدان في أشخاص، هناك الله أو الشيطان. وفي أحياء الصفيح وفي الجامعات هناك مئات الآلاف من ذوي العقول الجاهلة أو مكونة حسب البرامج الغربية (لكن قلوبها غير مغلقة للنداءات الروحية) تلوك لجامها.[5] لقد قدمت لها الماركسية تفسيرا لبؤسها وتخلفها. لكن هاهي ذي مجندة روحيا ومحفزة ماديا ومسلحة ثقافيا. باختصار، إنها تريد المزيد من ذلك، وتريدنا كذلك.

رجال دعاة يظهرون ويغيبون، ثم يتجسدون ثانية. رموز أمل، فإنهم يتعاقبون كزوابع الرمال في الصحراء، تهيج وتهدأ لتظهر بعد في مكان آخر. إن الروح ينفخ حيث يريـــد. البعض منهم محترم والبعض الآخر مقيت. كلهم خطيرون بتحمسهم. وكلهم يقدمون للشباب بديلاً عن المجتمع الغربي المادي، ومن ذلك تأتي ضخامة عدد مستمعيهم.

في زمن التحقت فيه الماوية بزعيمها إلى لحده، والماركسية يعاد النظر فيها بالاتحاد السوڤييتي، والمسيحية تتساءل أكثر مما توحي للغرب، فإن الإسلام يتأكد في العالم كهيجان عارم. إن تناقضاته ليست ضعفاً بقدر ما هي عنصر تنافس ومزايدة. وبالنسبة للعالم الثالث، فإنه يجسد ويترجم الطموحات والمطالب.

إن الأصولية الإسلامية زاحفة.

بقلم : روني سيرفواز (René Servoise)

سفير فرنسي

ترجمة : محمد بريش

عن جريدة «لوموند» الفرنسية

ليوم الخميس 7 يناير 1988

الهوامش :

1) يعني الكاتب بذلك آية الله الخميني والعقيد معمر القذافي.

2) نأتي بالكلمة كما قالها صاحبها، ولا نريد أن ندخل في الجدل حول هل القدس عاصمة لإسرائيل أن لا ينبغي قول ذلك بل نعتبر ذلك **مسخاً** للقضية لأن الأمر ليس أمر عاصمة وإنما هو **قضية** احتلال أرض بالقوة وتقتيل وتشريد شعب وحرمانه من العيش بأرضه وتتبعه إرهاباً وتنكيلاً **داخل بلاده المغصوبة وخارجها، بل صياغة مناهج تدميرية لاستئصاله وقطع جذوره والقضاء على أغلب أفراده وتذويب الباقي في مجتمعات خارج الأرض المغتصبة** (المترجم).

3) هناك من يجد حرجاً في النّطق بكلمة دولة ويستبدلها بكيان، والحرج موجود لدينا بالفعل لأننا نرفض الهوان، ونرفض المصطنع من الكيان. ولكن الواقع المرير يفرض علينا أن ننتبه إلى أن للعدو دولة بما للكلمة من مفهوم سياسي وعسكري. لا نقول بقبول العبارة تطبيعا للهزائم وتكريساً لفرض الهيمنة الصهيونية، ولكن نقول إن الجرح العميق لا يكفي لعلاجه تصوره خدشاً !

4) مثل فرنسي يعني أنها كاظمة غيظها (**rongent leur frein**).

إذا كانت القضية الفلسطينية ـــ القضية المركزية للأمة الاسلامية ـــ قد وصلت إلى دَرَكٍ خفيض من الميوعة، نتيجة الاستشهار والجبن العربي، ونتيجة العلو الاسرائيلي الكبير بكل خلفياته المعروفة وغير المعروفة، فان الكثير من بديهيات الصراع مع الصهيونية ومن يقفون وراءها، غاب تماماً وسط ضباب المعارك الهامشية المفتعلة غالباً، ويساعد على ذلك ضجيج آلة الاعلام التي تعمل بفعالية هائلة... ومن هذه البديهيات المغيبة، أن البُنيات العربية الحالية، ليست فقط عاجزة عن فعل إي شيء حقيقي في خضم الصراع مع الصهيونية، فلكنها تساهم بشكل مباشر وغير مباشر في تدهورها بوضع المزيد من المعوقات في طريق حلها الحل الصحيح، أي الحل الذي يعيد وضع القضية برمتها على قدميها بدل ان تظل مقلوبة على رأسها فتبدو كل الاشياء مقلوبة، مما يجعل من غير الممكن معرفة الحقيقي من الوهمي، وان كانت هناك دلائل تشير الى ان البعض قد بدأ فعلا عملية المراجعة هذه، عمليا وعلى الارض، كما يحدث في جنوب لبنان مثلا..

في هذا الاطار، يندرج هذا الجزء من دراسة قام بها الباحث الفلسطيني المعروف منير شفيق، رئيس دائرة التخطيط لمنظمة التحرير الفلسطينية حول خلفيات السياسات العربية تجاه القضية الفلسطينية، وهي اصلا بالفرنسية ولم تنشر من قبل، وقد قمنا بترجمة هذا الجزء من الدراسة لتعريف القارىء الكريم بجانب آخر من التفكير لدى فئة أخرى من الباحثين الفلسطينيين، والتي هي، على كل حال، تمثل طرحاً مغايراً لما هو متعارف عليه في الادبيات السياسية الفلسطينية المعاصرة.

السياسات العربية والقضية الفلسطينية

● للأستاذ منير شفيق

«فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية، تقول الدول العربية شيئاً، وتطبق شيئاً مغايراً تماماً»(1).

هذه ملاحظة كثيراً ما صرحت بها شخصيات عدة، وهي الملاحظة التي عززتها تصريحات الرئيس الامريكي السابق جيمي كارتر الذي أكد **أن أية دولة عربية لم تطالب في محادثتها مع الولايات المتحدة الامريكية، بانشاء دولة فلسطينية.**

هذا التصريح كان مفاجأة، حتى بالنسبة للذين ليست لهم، بصفة عامة، أية ثقة في الخطاب العربي الرسمي، لأنهم لم يتوقعوا أن يصل التناقض بين الخطاب والفعل الى الدرجة التي لا تجرؤ معها الدول العربية على المطالبة بإنشاء دولة فلسطينية خلال محادثتها مع الولايات المتحدة.

والواقع ان هذا المطلب الذي كان موضع قرارات عدد كبير من مؤتمرات القمة، تم التأكيد عليه بواسطة تصريحات لا تنقطع لعدد من رؤساء الدول العربية ورؤساء الوزراء أو وزراء الخارجية في أكثر من مناسبة.

السؤال الذي يمكن طرحه أمام هذا الأمر الواقع، هو لماذا هذا التناقض بين التصريحات المعلنة والممارسات العملية أو المرجوة.

يستطيع البعض أن يجد إجابة سهلة لما يبدو أنه لعبة ذهنية مستعصية من خلال تفسيرات مخابراتية، ولكن هذا النوع من التفسيرات لن يكون كافيا بالتأكيد لفهم الوقائع في جميع وجوهها وخلال سنوات طويلة رغم انطباقها أحيانا على وقائع محددة.

هذا البحث يحاول النفاذ الى الواقع العربي الموضوعي في مظاهره الداخلية والخارجية من خلال الوضعية المعطاة من جهة، وعلاقتها بالقضية الفلسطينية من جهة أخرى.

أو بعبارة أخرى، سيحاول الكشف عن العوامل الفاعلة في السياسات المعلنة والمطبقة بالشكل الذي يساعد على فهم أفضل لهذا الوضع المعقد، مع العلم ان هذا الاخير بلغ درجة من التعقيد بحيث يصبح من الصعب معه الرؤية الواضحة لجميع مظاهره.

يجب اولا توضيح أن هناك عدداً من الخصائص، التي يحسن أخذها بالاعتبار، إذا أردنا فهم السياسات والممارسات العربية تجاه فلسطين.



عن جريدة «القبس الدولي»

ناجـي العلـي

الانقسامات العربية والأمة الواحدة

كل دولة عربية هي جزء من أمة واحدة.

هذه حقيقة معترف بها من طرف أغلبية الدول العربية ومن طرف غالبية المثقفين والسياسيين، ومؤكد عليها من طرف الجماهير، أما بالنسبة للذين يشكون في هذه الوحدة، فإنهم يعترفون مع ذلك ان هذه المنطقة تتوفر على خصوصيات، كالعلاقات الخاصة التي تنسج بين مختلف أطرافها، رغم أن هذه العلاقات لا تبلغ من حيث أهميتها تلك التي تربط نفس هذه الاطراف في كلٍ موحد، فهي أقوى من مجرد الروابط الاقليمية أو الجغرافية السياسية.

وعليه، ومنذ ان ساد الاسلام في هذه المنطقة، عاشت هذه الاخيرة في مناخ كانت فيه الايديولوجيا في الحضارة الواحدة قد بلورت فيه شعوراً بالانتماء وبالمصالح والوجهة المشتركة، وعاشت ايضاً في اطارها العام، وفي اغلب الاوقات، تحت نظام سياسي وشرعي واحد.

وحتى في المراحل التاريخية التي كانت تقوم فيها دولة ذات سيادة سياسية، كما وقع مثلا عندما كان المغرب لا يخضع الى الخلافة العثمانية، لم يكن قط في ذلك الوقت عند أي من القادة نية في أن المغرب يمثل أمة مستقلة. وفي ذات الوقت، لم يكن ممكنا الخروج من الوحدة العامة إلا من خلال تبريرات سياسية.

والاهم من هذا هو أن هذه الوضعيات لم تؤثر قط على الحركة بين الحدود حيث استمر الاتصال في شعور موحد بالانتماء الموحد إلى الامة العربية، تحت تأثير مشاعر الاخوة في الاسلام، وايضاً من خلال العلاقات الاقتصادية.

إن هذه التجزئة التي نراها اليوم، والتي أفرزت واحدا وعشرين دولة حتى الآن، تعود جذورها الى الاحتلال العسكري الاستعماري الذي تمكن من احتلال بعض المناطق خلال القرن التاسع عشر من الدولة العثمانية، وتوسيع هذا الاحتلال بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى.

لقد عمد الاستعمار الغربي إلى تكريس التجزئة عبر اتفاقيات ومعاهدات دولية، كاتفاقية سايكس – بيكو مثلا، وعن طريق المؤتمرات الدولية بعد الحرب العالمية الأولى.

وعلى الرغم من الخلافات التي كانت تطبع العلاقات بين بريطانيا وفرنسا في ذلك الوقت، إلا أن المخطط الاستعماري الذي اتفقا عليه كان هو تجزئة البلدان العربية إلى أكبر عدد ممكن من الدويلات.

هذه التجزئة إذاً، لم تكن نتيجة توزيع لمناطق النفوذ، ولكن تمت على أساس مبدإ استراتيجي مستقل بذاته. وهذا ما يفسر التقسيمات التي عرفتها البلدان الخاضعة لسيطرة استعمارية

واحدة، كما هو الشأن مثلا بالنسبة لدول المغرب العربي أو بين مصر والسودان أو بلاد الشام أو شبه الجزيرة العربية.

أولى النتائج المستخلصة من هذه الحقيقة التاريخية هي أن الدول العربية ليست سوى ثمرات للتجزئة المفتعلة والمفروضة بالقوة.

بعد رحيل الاستعمار الاوروبي ونهاية المعاهدات الاستعمارية، لم تتطور الاوضاع في اتجاه إعادة بناء الوحدة بين الأطراف العربية، بل على العكس، فالحدود الجغرافية والسياسية والاقتصادية والثقافية للدول العربية المستقلة حديثا تم تكريسها وتدعيمها إلى أعلى المستويات. من هنا نشأت وضعية جد خاصة بالنسبة للدول العربية.

فكل دولة قامت وكأنها تمثل أمة في ذاتها، بينما هي في الواقع وباعتراف معظم دساتير هذه الدول تحكم جزءاً من أمة واحدة.

وهكذا إذاً نشأ تناقض على مستوى الدولة نفسها، بين كونها دولة في حد ذاتها، وبين كونها جزءا في نفس الوقت من كل واحد. وهذا التناقض يظهر أيضا في الحقل السياسي بين المصالح الضيقة الخاصة بكل بلد، وبخاصة مصالح النظام من جهة، والمسؤولية تجاه الأمة من جهة أخرى.

هنا تتدخل القضية الفلسطينية كعامل أساسي في هذا التنافض، لأن القضية الفلسطينية هي إحدى أهم المعضلات التي تهم مجموع الامة.

وهذا التناقض هو الذي يترجم المسافة بين السياسة المعلنة التي يجب أن تعبر عن المسؤولية الوطنية، وتلك المتبعة التي تمثل مصلحة الدولة المعينة.

لاتوجد دولة أو نظام أو حزب سياسي في أي بلد عربي لم يصرح ويكرر أن القضية الفلسطينية تمثل أحد انشغالاته الرئيسية، إن لم تكن هي شاغله الأول، على أساس أنها قضية العرب جميعا، وأنها قضية مقدمة تستحق جميع التضحيات.

هذه التأكيدات تنبع من حقيقة موضوعية طبيعية هي : الانتماء إلى أمة واحدة، وكل تصريح معارض يصطدم بالارادة الشعبية داخل كل دولة، وعلى مستوى كافة الدول العربية، والذين لا يرددون هذه التصريحات عن اقتناع، يرددونها مرغمين أو تقية. وحتى في الحالات التي تكون فيها هذه التصريحات صادقة وعن حسن نية، إلا أنها سرعان ما تصبح أسيرة المصالح الضيقة مرة أخرى، وفي حدود دولتها فقط.

هنا يطرح السؤال التالي نفسه : ما الذي يجعل هذه المصالح الضيقة مناقضة لواجبات المسؤولية تجاه القضية الفلسطينية ؟.

مبدئيا، النجاح في تحرير فلسطين أو على الأقل محاولة المواجهة الجادة للدولة الصهيونية، سيكون في صالح الدولة أو الدول التي ستشارك في هذه المواجهة لأنها ستؤمّن مصالحها الخاصة من خلال الدعم والتأييد الذي ستلقاه هذه الانظمة وارتفاع روحها المعنوية، وتكسبها احتراما على المستوى الدولي. لكن ما يجعل الأمر رهانا يمكن في واقع آخر، يبدو هو الآخر حاسما أيضا، وهو دعم قدرة هذه الدول على مواجهة العدو. وانتزاع النصر والتحرير. والمواجهة في حالة عدم القدرة، تعني الهزيمة، بل واحتلال جزء من أرض هذه الدول والكشف عن مساوىء النظام فيها.

لكل هذه الأسباب، يصبح من الضروري التمييز بين التصريحات المعلنة المتعلقة بفلسطين، والسياسات المتبعة في هذا المضمار.

وإلى هذا الحد، يمكن أن نتوقف عند سؤال آخر : ماهو مصدر عدم القدرة على مواجهة العدو، بينما تمتلك الدول العربية موارد مادية وبشرية ومعنوية هائلة ؟ فسكانها يفوقون 160 مليونا، بعضها يتوفر على فائض مالي يبلغ مئات الملايير، والعالم العربي يمتلك ثروات طبيعية هامة ووضعية استراتيجية في العالم أجمع، إنه يمثل جزءا من العالم الاسلامي الذي يتوفر على وضعية مهمة سواء على مستوى دول عدم الانحياز ودول «العالم الثالث» أو داخل قارتي آسيا وافريقيا.

لقد حاولت الدولة الصهيونية دائما أن تظهر بمظهر الدولة الضعيفة المهددة من طرف جيرانها الذين يبلغون عشرات ومئات الملايين، وهم يتوفرون على ما سبق ذكره، بينما لايتعدى سكانها الأربعة ملايين نسمة، يقطنون أرضا صغيرة دون موارد طبيعية أو مادية.

انه لأمر واقع، عندما نرى في الخريطة العربية المساحة التي تحتلها الدول الصهيونية، وعندما نفكر في مجموع الحقائق المتعلقة بعدد العرب وامكانياتهم، فاننا ندهش لهذا العجز ونستطيع أن نفهم أيضا كيف استطاع الاعلام الصهيوني أن يكون مقنعا في تصويره للدولة الصغيرة الواعدة وسط جيرانها الأقوياء أمام الرأي العام الدولي.

عندما انهزمت الجيوش العربية في حرب 48 — 1949، وقامت دولة اسرائيل، فسر البعض المسألة استنادا إلى حجج سياسية واقتصادية تعود إلى طبيعة الطبقات الحاكمة نفسها، في حين كان البعض الآخر يحيلها إلى التبعية السياسية تجاه الاستعمار العالمي. وساعد على قبول هذه التفسيرات نجاح عدد من المحاولات في مرحلة تالية. فمعظم الأنظمة أبدلت بأخرى وطنية معادية للاستعمار، كسرت احتكار تجارة السلاح والعلاقات الاقتصادية مع الغرب : لكن هذا لم يغير من عدم قدرتها على الساحة العسكرية كما ظهرت في العدوان الثلاثي في مصر سنة

1956، أو الطريقة التي تدخل بها عبد الناصر لمحاولة منع انفصام الوحدة المصرية السورية في 1961. هذا العجز اتخذ شكلا أكثر وضحوحا عندما اتخذت القمة الرابعة في 1964 قرارات تتعلق بتحويل اسرائيل لمياه نهر الأردن دون أن يتم تنفيذها.

ثم جاءت حرب يونيو 1967 لتجعل من هذا العجز أمرا لايقبل النقاش، وأخيرا، عندما حاولت حرب اكتوبر أن تغير من هذه الصورة سارع قائدها إلى محو آثارها، مبديا وهناً سياسيا مقيتا، ولجأ إلى جميع أشكال التوريط ليصرح في النهاية : «لاحرب بعد حرب اكتوبر» ويستسلم إلى معظم الشروط الاسرائيلية، مثل التي نصت عليها اتفاقية كامب ديفيد والمعاهدة الاسرائيلية المصرية.

هذا العجز عن مواجهة المشروع الصهيوني ثم الدولة الصهيونية يمثل خاصية مشتركة بين جميع الدول العربية لمدة أربعين عاماً، على الرغم من التحولات الداخلية التي طرأت على عدد كبير منها، وبخاصة الدول الاكثر أهمية إذ شهدت تغييرات اجتماعية عميقة، وثورات على المستوى السياسي والاقتصادي في اتجاه نظام اشتراكي جديد ثم اقراره بالفعل. وهذا ما يدفعنا إلى البحث عن أسباب هذا العجز داخل جذور وطبيعة هذه الوضعية في البلدان العربية، وليس في طبيعة هذا النظام أو ذاك، أو هذه أو تلك من الطبقات الحاكمة. لهذا يصبح من الضروري ملاحظة القوانين التي تحكمت في الوضعية بعد إقرار دول التجزئة من جهة، وقيام دول إسرائيل من جهة أخرى، وكذلك الوضعية الدولية الجديدة بالنسبة للعالم الثالث خلال العقود الثلاثة الأخيرة، وأخيرا العلاقات مع النظام الاقتصادي والسياسي العالمي الجديد.

إن القانون الذي تحكم في السياسات العربية تجاه القضية الفلسطينية يتميز بخضوع هذه القضية للاعتبارات والمصالح الخاصة بكل دولة، ولاولويات سياسية مختلفة، أي أن القضية الفلسطينية أعيدت إلى المستوى الثاني، أو الثالث، أو حتى الرابع، في سلم الأولويات والاهتمامات العملية لدول التجزئة. وبما أن هذه القضية لها علاقة مباشرة بالحس الشعبي، أعطيت لها الاولوية فقط في الخطابات والشعارات والمؤتمرات، بينما اتجه الدافع العملي إلى وجهة أخرى مغايرة، إن لم تكن مناقضة في أحيان كثيرة.

الدولة الناشئة من واقع التجزئة وتقليص الامكانيات

إن إنشاء هذا العدد الكبير من الدول العربية المستقلة، التي تعمل على تثبيت دعائمها والمحافظة على حدودها دفعها إلى وضع المواجهة فيما بينها، رغم انتمائها إلى أمة واحدة، وهكذا أدت بها الخلافات الهامشية، والصراعات الداخلية، إلى حالة الشلل والضعف البالغ في مواجهة التحدي الصهيوني، وضمن شروط دولية يفرض فيها النظام الاقتصادي السياسي العالمي، وبالقوة، قوانينه ومبادئه.

إن التجزئة التي شملت كافة الدول العربية، قد أفرزت أنواعا متباينة من الصراعات من حيث طبيعتها :

1 ـــ صراعات حول الزعيم والنظام داخل كل دولة،

2 ـــ صراعات تهدف إلى القضاء على أطراف أصبحت دولا جديدة، اعتبرت أصلا، جزءا مقتطعا من الدولة العربية المستقلة الأكبر.

3 ـــ صراعات حول الحدود.

4 ـــ صراعات حول الانظمة الحكومية وطبيعة النظم،

5 ـــ الصراعات الناتجة عن تعدد الارتباطات والعلاقات مع بلدان خارجية مختلفة.

وإذا أخذنا بالاعتبار الامتدادات التي تتوفر عليها دول عربية داخل أخرى، والدعم الذي تقدمه هذه الدولة إلى هذا الطرف أو ذاك من خصومها في الدولة أو الدول الأخرى من الذين يتصارعون على السلطة، نستطيع حينئذ أن ندرك مدى خطورة الاوضاع التي وجدت فيها هذه الدول الناشئة نفسها، وبعبارة أخرى، يمكن من خلال هذا كله حصر الاسباب الحقيقة الموضوعية التي تبقى معها الدول العربية مجزئة باستمرار، تمزقها صراعات ومنافسات لا تنقطع، مما يضعف قدرتها على العمل الموحد أو المتكامل، سياسيا، واقتصاديا، وعسكريا، ويعزز اتجاهه كل دولة إلى تمتين علاقاتها الخارجية، بدل تعزيز العلاقات العربية فيها بينها. وهذا يظهر بشكل أكثر مضوحا عندما نتتبع مسار

العلاقات الاقتصادية والثقافية، أو في ميدان المواصلات.

وأكثر من هذا، **هذه الصراعات العربية تتطلب صرف طاقات وجهود مهمة جدا، حيث يخصص جل الوقت لهذه المشاكل، وتعطى لها الاولوية في الشعارات والسياسات، وكل هذا على حساب القضايا التي تشغل الأمة، وفي مقدمتها القضية الفلسطينية.**

من هنا يمكن أن نستخلص **أن القانون الذي تحكم في السياسات العربية تجاه القضية الفلسطينية يتميز بخضوع هذه القضية للاعتبارات والمصالح الخاصة بكل دولة، ولأولويات سياسية مختلفة، أي أن القضية الفلسطينية أعيدت إلى المستوى الثاني، أو الثالث، أو حتى الرابع في سلم الأولويات والاهتمامات العملية لدول التجزئة. وبما أن هذه القضية لها علاقة مباشرة بالحس الشعبي أعطيت لها الأولوية فقط في الخاطابات والشعارات والمؤتمرات، بينما اتجه الواقع العملي إلى وجهة أخرى مغايرة إن لم تكن مناقضة في أحيان كثيرة.**

هذا هو الذي يفسر بدقة التناقض الذي يطبع العلاقة بين الأقوال والافعال عندما يتعلق الامر بالمسألة الفلسطينية عند الدول العربية. كما أنه يفسر من جهة أخرى سبب العجز الذي اتسم به الخطاب العربي الرسمي تجاه المشروع الصهيوني والدولة الاسرائيلية.

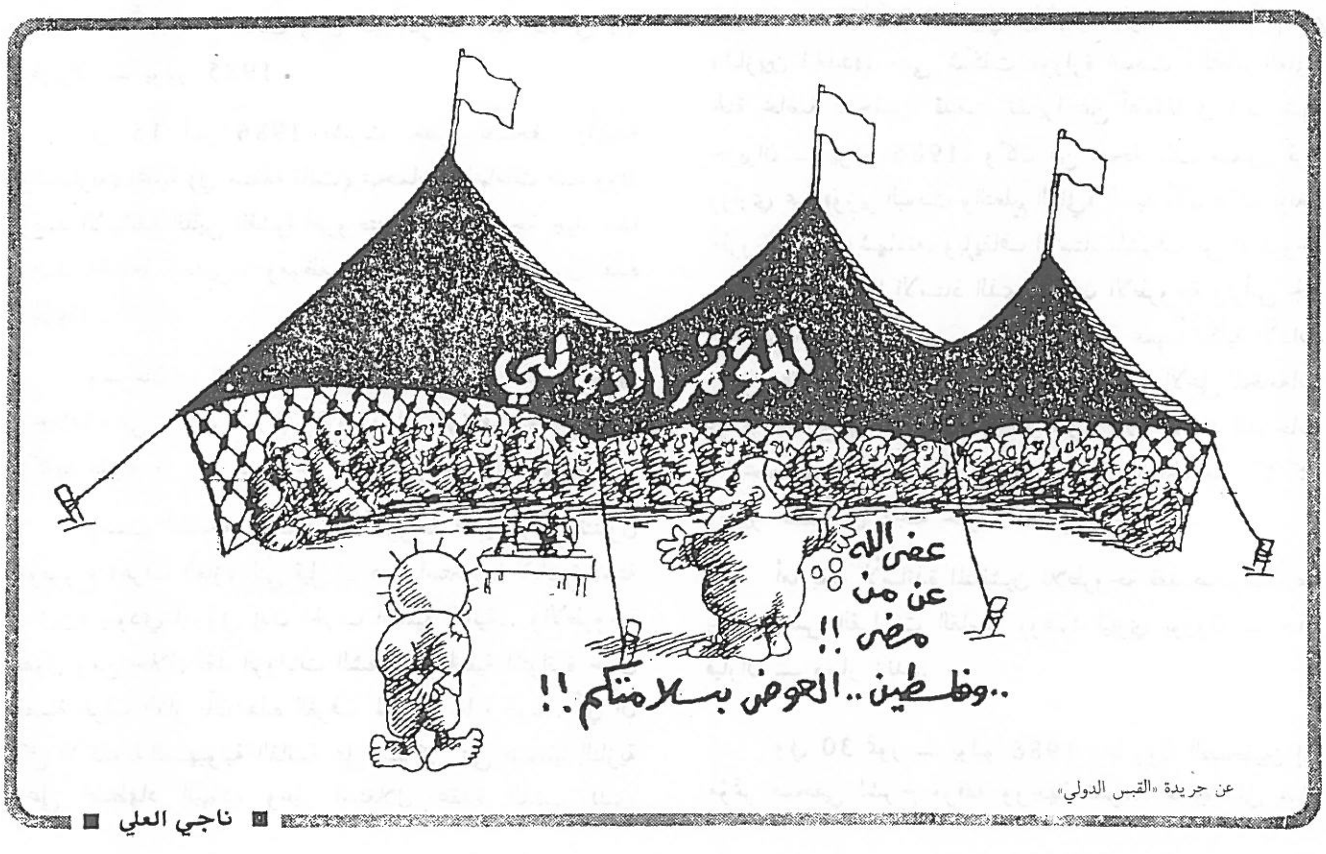
كل الهزائم كانت من نصيب الدول العربية منذ **1948** إلى الآن كلما واجهت جيش الدولة الصهيونية، ولم تكن هذه الهزائم إلا نتيجة للجمود والتهرب، والمعنوية الخائرة، وليس نتيجة المواجهة الفعلية فوق الأرض.

لقد كانت الجيوش العربية منهزمة حتي قبل أن تبدأ المعركة، لأن الدول العربية لم تضع قط القضية الفلسطينية على رأس أولوياتها، ولم تواجه قط هذه المسألة بالقدر الكافي من الجدية، لأن حلها ضروري جدا، ويجب تقديم التضحيات اللازمة بما في ذلك التضحية بالمصالح الضيقة لكل دولة عربية.

إن واقع التجزئة، وما يكتنفه من جمود أو تهميش للقضية الفلسطينية من موقعها الأمامي، يجب أن يفهم كعامل موضوعي حاسم في الوضعية العربية الراهنة. وهذا لايعني إهمال العوامل الاخرى التي يجب أخذها بالحساب في أية محاولة لتحليل سياسية عربية معينة في إطار شروط عامة محددة، لأن من الأهمية بمكان رؤية هذا العامل في علاقته بمجموعة من العوامل الثانوية، بدءا من التعريف بوضعية كل دولة وعلاقاتها بأخواتها وعلاقتها مع القوى الدولية، بما في ذلك طبيعة النظام السياسي وخصائصه، وأخيرا الوضعية الجغرافية بالنسبة لفلسطين.

---

(1) «Keeping Faith - Memors of a President» Jimmey Carter - Collins - London - 1982 pp. 286 - 300 - 302.



عن جريدة «القبس الدولي»

ناجي العلي

فضيحة من فضائح الإرهاب الصهيوني ضد حقائق التاريخ !!

بقلم: د. سعود نعمة المولى

مع ان العنوان يتناول قضية واسعة وشائكة ومعقدة وطويلة الأجل، الا ان ما نريد قوله في هذه المقالة هو انه مطلوب فتحُ نقاشٍ جدي وعميق وتفصيلي حول التبعية الفكرية والثقافية التي تعاني منها بلادنا الاسلامية عامة، وحول ضرورة تحطيم هذه التبعية واطلاق المبادرات باتجاه حرية نقدية حقيقية واستقلال فكري متين أو بالاحرى: ينبغي ان يكونا دعامة نهضتنا الاسلامية المباركة. ونبدأ مقالتنا ببعض الاحداث..

ضجة في فرنسا

في صيف 1986 ثارت ضجة في فرنسا حول اطروحة دكتوراه جامعية قدمها المهندس الفرنسي هنري روك **Roques** (65 سنة) بجامعة نانت ونال عليها درجة جيد جدا في 15 حزيران — يونيو 1985.

في 15 أيار 1986 نشرت بعض الصحف (اليمينية واليسارية) المحلية (في منطقة نانت) تهجمات واتهامات ضد روك وضد الاساتذة الذين ناقشوا اطروحته ومنحوه درجة جيد جدا وضد الجامعة ومديريها وموظفيها الذين سمحوا بحصول هذه الجريمة!..

وسرعان ما انتقلت القضية الى باريس، وحملتها صحفها ومجلاتها وعلى الاخص ليبراسيون ولوماتان ولونوفيل أو بسرفاتور (كلها مقربة من الحزب الاشتركي والأوساط الصهيونية).

وسبب الضجة والحملة أن أطروحة السيد روك تتناول موضوع «غرف الغاز» التي قيل ان هتلر استعملها لابادرة «ستة ملايين» يهودي اوروبي إبان الحرب العالمية الثانية.. والاطروحة تقول ومن خلال نقد الروايات الشفوية والخطية المتواترة حول قضية غرف الغاز بأن هذه الغرف لم يكن لها وجود.. أي ان كل الأكذوبة الصهيونية القائمة على التباكي على ضحايا النازية وعلى اضطهاد اليهود، وعلى استغلال عقدة الذنب لدى الاوروبيين عامة ولدى الألمان خاصة، هي قيد الانهيار.. وهذا سر الحملة والضجة التي ثارت في فرنسا وبعد سنة تماما من نقاش الأطروحة ونيل صاحبها درجة الدكتوراه في التاريخ..

والأطروحة تقع في جزئين من 371 صفحة وفيها يفند روك «الشهادات» التي قدمت حول غرف الغاز وحول إعدام اليهوم جماعيا فيها أو إبادتهم، ويظهر تناقضُ وكذبُ ولا تاريخيةُ ولا علميةُ هذه «الشهادات» (التي لم يناقشها أحد أو يقرأها أحد في بلادنا الاسلامية وللاسف).

وما أن ثارت الضجة في الصحف والمجلات والاذاعات، وتحرك اليهود وأتباعهم وخصوصا في اليسار الفرنسي (الحزب الاشتراكي) الذي يريد كسب نقاط داخل أوساط الجاليات اليهودية ضد الحكم الديغولي وإظهار تهاون هذا الحكم مع «النازيين الجدد»، حتى شكلت «وزارة البحث والتعليم العالي» لجنة خاصة للتحقيق، قدمت تقريرا عن أعمالها في آخر شهر حزيران — يونيو 1986، وكان من نتيجة ذلك صدور قرار وزاري عن «وزير البحث والتعليم العالي» السيد ألان فاكيه بإلغاء اطروحة روك وشهادته، وبإيقاف الاستاذ المشرف على الاطروحة عن العمل.. وهذا الاستاذ الذي واكب الاطروحة وترأس لجنة مناقشتها هو «جان كلود ريفيير» وقد كان عميداً لكلية الآداب (أعوام 1980 — 1982) وعضواً في «المجلس الاعلى للجامعات في فرنسا» وهو أعلى هيئة جامعية في البلاد توزع الدرجات والاختصاصات وتحدد أماكن عمل الأساتذة الجامعية. كما كان ريفيير عضواً في «لجنة خبراء» المجلس الاعلى..

أما بقية الأساتذة المناقشين للاطروحة فقد صدرت أيضا بحقهم نفس القرارات القاسية (وهم: ثييري بورون — جاك فياران — وبيار زند).

وفي 30 تموز — يوليو 1986 دعا روك الصحفيين إلى مؤتمر صحفي لشرح موقفه ووجهة نظره.. فسبقه الى هناك

عشرات المتظاهرين من أعضاء منظمة «إس أو إس راسيسم» — Sos Racisme — وهي منظمة صهيونية اشتراكية (يشارك فيها بعض عرب فرنسا طبعا).. وتضامن الصحفيون اليساريون مع المتظاهرين في منع روك من الكلام (ليبراسيون — لوماتان — لومند — 31 تموز).

صحيفة ليبراسيون الصهيونية الاشتراكية لم تخف تحريضها ضد روك وضد زملائه وأصدقائه فنشرت قوائم بأسماء كل الذين يقفون نفس موقف روك في الحديث عن أكذوبة غرف الغاز واسطورة الهولوكوست (المحرقة — وهي تستعمل عالميا للاشارة الى الدعاية الصهيونية حول إحراق وذبح وابادة ستة ملايين يهودي على أيدي هتلر).. ومن بين الاسماء التي نشرتها ليبراسيون: نعوم شومسكي وهو يهودي أميركي وعالم لغويات شهير، بيار غليوم وهو ناشر يساري فرنسي، روبرت فوريسون وهو أستاذ جامعي كان أول من طرح في فرنسا هذه القضية عام 1978، وبول راسينييه وهو أديب وكاتب يساري فرنسي من المقاومة ضد الاحتلال الالماني وتعرض للاعتقال وعاش المعسكرات النازية في الحرب، وكتب كتبا هامة وخطيرة حول المعتقلات وحول أكاذيب اليهود وكل السياسيين الفرنسيين (الكتب صدرت أعوام 1946 - 1949 وهي اليوم مفقودة)..

وصحيفة ليبراسيون هاجمت وزير البحث والتعليم العالي لأنه لم يحدد في تقريره حول القضية النقاط التالية:

«أين جرى نقاش الاطروحة أي: في أية غرفة بالضبط؟ ومن حضر المناقشة، أي من هم الحضور وليس فقط هيئة الاساتذة المناقشين؟» (ليبراسيون 31 تموز).

كما أن الجريدة المذكورة تهاجم الاساتذة الذين رفضوا في كلية الآداب — جامعة نانت — التوقيع على عريضة ضد جان كلود ريفيير (الاستاذ المشرف على الاطروحة) — ليبراسيون 31 تموز ص 11 —

القضايا السابقة في فرنسا

وهذه ليست أول مرة تثار فيها مثل هذه الضجة في فرنسا وحول هذا الموضوع.. فكل أسبوع، لا بل أحيانا كل يوم، تحمل الصحف والمجلات الفرنسية أخبار دعوى ومحاكمات بتهمة «العداء للسامية».. فكل مواطن يتجرأ على طرح سؤال أو استفهام أو موضوع أو اطروحة حول قضية اليهود واسرائيل والصهيونية متهم بالنازية وبالعداء للسامية، ويتم تغريمه بمبالغ كثيرة إضافة إلى الضغوطات الاجتماعية والأدبية والمعنوية والسياسية والمعيشية التي يتعرض لها.. وأشهر قضيتين في هذا الاطار (قبل قضية الاستاذ روك) هما قضية «غارودي — لولون — ماثيو»، وقضية «فوريسون»، ومؤخرا أيضا قضية فالد هايم التي كانت قضية فرنسية أكثر من كونها قضية نمساوية، وقبل الكلام عن هذه القضايا نذكر ان النائب الفرنسي في البرلمان الاوروبي السيد برنار انتوني قد حوكم في 4 حزيران للمرة الرابعة بتهمة «التحريض على إثارة النعرة العنصرية والعداء للسامية» وذلك لأنه قال لمندوبة جريدة لوموند في 19 أكتوبر 1985: «ألا نستطيع في النهاية أن نتكلم ونناقش المسألة اليهودية كما نناقش ونتكلم عن مسألة الباسك على سبيل المثال؟.. اننا نلاحظ أو ننقل بعض الملاحظات ذات الطابع الاجتماعي: ان هناك قوة في فرنسا لا تقبل ولا تريد الاندمج بمجتمعنا.. وبالنسبة لها فان مصالح «اليهودية» تأتي أولا وقبل مصالح المجتمع الفرنسي»..

وفي شهر ايار 1986 حكم على جريدة فرنسية تصدر في منطقة الالزاس — اللورين واسمها نيو ستيمه New Stimme بغرامة قدرها عشرة آلاف فرنك بنفس تهمة «التحريض على إثارة النعرة العنصرية والعداء للسامية» وذلك لمقال نشرته في حزيران 1985 يتناول استعمال اليهود لموضع غرف الغاز في دعايتهم الصهيونية في فرنسا.

وفي كندا، حوكم ويحاكم للمرة الخامسة البروفيسور ارنست زوندل (وهو ناشر من أصل ألماني) وبنفس تهمة «معاداة السامية» وذلك لنشره كتابا أميركيا عنوانه: «هل حقا مات ستة ملايين يهودي؟» وكتابا آخر بعنوان: «الغرب، الحرب، والاسلام».

وفي لوس انجلس بأميركا انعقد في صيف 1983 مؤتمر أو ندوة فكرية لمناقشة قضية «الهولوكوست» و«غرف الغاز» وذلك من الزاوية التاريخية.. (ليبراسيون 24 أيار 1986).

وفي تموز 1984 أحرق الصهاينة مكتبة تاريخية وثائقية تابعة للمجموعة التي نظمت ندوة صيف 1983 وهي مجموعة من أساتذة التاريخ ينتمون الى مدرسة اسمها «مدرسة المراجعة التاريخية» وتهتم باعادة النظر وبمراجعة ما كتب حول الحربين العالميتين الاولى والثانية، وهي مدرسة قديمة تعود في أصولها الى عام 1928، وتصدر كتبا ومجلات عديدة..

هذه عينة بسيطة وسريعة من الاحداث أو القضايا التي مرت وتمر يوميا مرور الكرام أمام أنظارنا دون تدقيق أو تحقيق أو تعليق..

1 ـ قضية غارودي ـ لولون ـ ماثيو

في صيف 1982، وإبان الغزو الاسرائلي للبنان وحصار بيروت، نشرت جريدة لوموند الفرنسية صفحة كاملة تحت عنوان «إعلان» ــ Publicite ــ (لتوضيح أن الصفحة إعلان مدفوع الثمن وليست من مسؤولية الجريدة) حمل الاعلان تواقيع رجاغارودي (مسلم فرنسي معروف) والاب ميشال لولون (كاثوليكي مناصر لقضايا العالم الثالث وللحوار مع الاسلام) والراعي اتيان ماثيو (بروتستانتي صديق للفلسطينيين)، والنصف حمل عنوانا سياسيا بارزا: بعد مجازر لبنان: «ما هو معنى العدوان الاسرائيلي؟». وثمن الاعلان بلغ سبعين ألف فرنك فرنسي دفعها الطلبة اللبنانيون الذين كانوا يومها يحتلون مكاتب جامعة الدول العربية في باريس، والجامعة العربية نفسها، وبعض السفارات العربية.

ومضمون البيان ــ الاعلان عبارة عن وثيقة سياسية تشرح للرأي العام الفرنسي ما يجري في لبنان وما جرى في فلسطين قبل ذلك (1948 – 1956 – 1967 – 1973 الخ) ويدعو الى موقف فرنسي عام ضد الغزو الاسرائيلي الجديد.

وقامت قيامة الصحافة واليسار واليمين ضد موقعي البيان. وأقيمت عليهم عدة دعاوى قانونية بتهمة «الحض على الكراهية العنصرية ومعاداة السامية».. كما اقيمت دعوى ضد مدير لوموند يومها السيد جاك فوفيه الذي فقد وظيفته بعد ذلك وحل محله الصهيوني اندريه فونتات واستمرت من مطلع 1983 وحتى نهاية 1984.

أما أدلة الاتهام الرئيسية ضد البيان ــ الاعلان فكانت التالية:

1 ــ «رأى الفرنسيون من قضاة وصحفيين أن من يقرأ البيان يخرج بشعور صارخ بالادانة ضد اليهود عامة» (جريدة ليبراسيون نقلا عن المدعي العام مارك دومنغو ــ 19 أذار ــ مارس 1983).

2 ــ «ان البيان يتكلم عن الصهيونية بلهجة متشددة» (الرأي العام الغربي واليهودي يعتبر اليهودية والصهيونية شيئا واحدا أو بالاحرى ان الصهيونية هي حركة تحرير اليهود وبناء دولتهم القومية).

3 ــ لا يجوز التهجم على دولة اسرائيل ولا يجوز تشبيه اسرائيل بالنازية، ولا يجوز الكلام عن اللوبي الصهيوني وعن السيطرة المالية الصهيونية في أوروبا وأميركا لان ذلك يعتبر بمثابة ترديد لكلام كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» وهو كتاب ممنوع ومدان ويعاقب القانون الفرنسي كل من ينشره أو يحمله أو يقتنيه، والنقطة الرئيسية في أدلة الاتهام التي تثبت ما سبق هي ورود الجملة التالية في البيان المذكور: «ان القوة المالية هي التي تفسر بلاشك تلك السيطرة العجيبة للوبي الصهيوني على مجمل وسائل الاعلام في العالم من الصحافة الى التلفزة مرورا بالسينما ودور النشر، وقد صدق ديغول حين أدان عام 1968 ذلك النفوذ المبالغ فيه».

2 ـ قضية فوريسون وجماعته

ينتمي روبرت فوريسون الى مدرسة من المؤرخين نشطت في أميركا منذ عام 1928 ومؤسسها هو الاستاذ هاري إلمر بارنز. انصب اهتمام هذه المدرسة في البداية على «مراجعة» الروايات الرسمية لبعض الاحداث والقضايا التاريخية، وخصوصا بعد الحرب العالمية الأولى والصدمة التي أحدثتها، وسعيا لكتابة تاريخ حقيقي لتلك الحرب يبتعد عن أكاذيب الدول المنتصرة وعن الشائعات أو المعلومات السطحية المتداولة شعبيا، وقد نجح بارنز في السنوات من 1928 الى 1939 في إثارة الرأي العام المثقف والجامعي حول اطروحاته وكتابات مدرسته التي بلغت عدة مئات من الدراسات والبحوث الهامة والخطيرة حول الحرب الأولى.. ثم أدى ذلك الى تأسيس «معهد المراجعة التاريخية» في كاليفورنيا ومجلة المراجعة التاريخية، ودار نشر المراجعة التاريخية في لندن وملبورن ولوس انجلس وغيرها..

وتوسعت صفوف هذه المدرسة أو الاتجاه العلمي في قراءة تاريخ أوروبا والغرب عموما واستقطبت الرافضين للبلادة والتقليد وللروايات الرسمية للمنتصرين.. وكان طبيعيا أن يصطدم عمل هؤلاء المؤرخين بعد الحرب العالمية الثانية بقضية اليهود ومسألة الهولوكوست..

وتدور أعمال مدرسة المراجعة التاريخية اليوم [روبرت فوريسون هو أشهر ممثليها في فرنسا ومعه اليسارايان سيرج ثيون وبيار غليوم وزونديل في كندا، ومؤخرا روك في فرنسا، وقبل ذلك الدكتور ستاغليش في المانيا، والعشرات غيرهم] حول الحرب العالمية الثانية وتفاصيلها ومواقف مختلف الاطراف فيها وبالأخص حول معسكرات الاعتقال النازية.. وقد نشر فوريسون عام 1978 نتائج بعض أعمال وأبحاث هذه المدرسة ونتائج عمله هو منذ عام 1973 في هذا المجال.

وخلاصة ما نشره ان «غرف الغاز» لم توجد أبدا، وانه لا يمكن من الناحية العلمية ولا التاريخية ولا الواقعية ان تكونْ قد وجدت.. وانما هي جزء من اسطورة — وهم — نشأت أثناء الحرب في المعسكرات النازية حيث ساد الرعب والفزع أوساط اليهود، ثم غذته الدول المنتصرة وكذلك الصهيونية العالمية بعد الحرب، لاستمرار إدانة المانيا، وخدمة لمخطط إنشاء دولة اسرائيل ولسحب ملايين الملايين من الدولارات كتعويض ألماني دفع لدولة اسرائيل وكان له الدور الرئيسي في جعلها تقف على رجليها طوال سنوات 48 — 60 (على الخصوص).. وتقول مدرسة المراجعة (وفوريسون) أن رقم ستة ملايين الذي يعطي للاشارة الى عدد ضحايا اليهود على أيدي النازيين مبالغ فيه كثيرا لا بل خيالي.. ويثبت فوريسون عبر عشرات الدراسات والابحاث والكتب ان: «الادلة الثبوتية حول وجود غرف الغاز شبه معدومة وكل ما هنالك شهادات شفوية للناجين من النازية» (واطروحة روك التي تحدثنا عنها أظهرت تناقض ودجل هذه الشهادات) وانه «تبين الاستحالة المادية — تنفيذ إعدامات جماعية بالغاز المسمى زيكلون ب — في الاماكن التي قيل ان ذلك تم فيها».. وقد زار فوريسون تلك الأماكن وأعد دراسات علمية كثيرة حولها.. (وكل ذلك نشر في كتاب سيرج ثيون وعنوانه: حقيقة تاريخية أم حقيقة سياسية — وهذا الكتاب ترجم على حد علمنا 3 مرات الى اللغة العربية ولم يصدر أبدا!!).

المهم ان عمل فوريسون وزنديل وستاغليش وسيرج ثيون وبيار غليوم والعشرات غيرهم هو عمل: علمي — تحقيقي — دقيق — مدعم بالرسوم والصور الفوتوغرافية والوثائق الخطية والاثباتات والادلة. وبسبب ذلك قامت قيامة الصهاينة ضده وحورب وجرى التعتيم على هذا الموضوع، ثم منعه من التدريس حيث كان أستاذ الادب المقارن في جامعة ليون، ثم أدين وفصل من الجامعة وقطع راتبه، ومنع ابنه من التسجيل في أية جامعة فرنسية، واعتدى الصهاينة عليه مرارا.. (الى حد انه رفض اليوم اعطاءنا صورة فوتوغرافية له مفضلا النسيان والابتعاد عن الاضواء).. وأقيمت ضده عشرات الدعاوي.. وأخطر لدفع تعويضات وغرامات طائلة رغم انه لم يصدر أي حكم يعتبر كتاباته خاطئة لا بل على العكس صدر عام 1983 (المحاكمات استمرت من 1979 حتى 1983) حكم يعترف «بجدية أبحاث فوريسون» ولكن يتهمه «بالاساءة الى ذكرى ضحايا النازية»..

وأهم من كل ذلك هو حملة الصحف الفرنسية عليه وعلى أصحابه.. لم يناقش احد ما كتاباته أو اطروحاته أو ادعاءاته.. ذلك أنه ممنوع النقاش والكلام في القضايا التي أثارها.. وتصديقا لذلك اليكم مقطعا من بيان نشرته جريدة لوموند (21 شباط — فبراير 1979) وهو بتوقيع 34 أستاذا جامعيا فرنسيا من المختصين بالتاريخ:

«لا يجوز أن نتساءل كيف كان ممكنا من الناحية التقنية تنفيذ تلك المجزرة الجماعية، لقد كان ذلك ممكنا تقنيا طالما انه وقع.. تلك هي نقطة الانطلاق الالزامية لأي بحث تاريخي حول الموضوع، وعلينا أن نعيد التأكيد على تلك الحقيقة البسيطة: لا يوجد ولا يمكن أن يحصل نقاش حول وجود غرف الغاز..».

هكذا بالحرف الواحد وبتوقيع 34 مؤرخا..

وفي المانيا، حوكم الدكتور ستاغليش صاحب كتاب «أسطورة أوشويتز: خرافة أم حقيقة؟» (وأوشو يتز اسم معتقل نازي قيل انه جرى فيه إعدام اليهود بالجملة في غرف الغاز وبواسطة الغاز السام زيكلون ب) وستاغليش دكتور دولة في الحقوق من جامعة غويتنغن (منذ عام 1951) صودر كتابه وأتلف وصدر قرار من جامعته بسحب درجة الدكتوراه منه وبمنعه من التعليم.. (مثلما حدث مع فوريسون ومؤخرا مع هنري روك)، والغريب ان القرار الذي صدر بسحب الدكتوراه منه استند الى قانون صدر في المانيا الغربية عام 1939 (أي أنه قانون نازي هتلري!!).

3 — قضية فالدهايم

في 9 حزيران — يونيو 1986 فاز كورت فالدهايم مرشح الحزب النمساوي المحافظ على منافسه الاشتراكي في انتخابات الرئاسة وذلك في دورة ثانية.. والحدث بحد ذاته لا يستحق الاهتمام.. فمالنا ومال النمسا ورئيسها.. غير أننا نذكر ولاشك تلك الحملة الشرسة المحمومة التي دامت عدة أشهر في صحف ووسائل إعلام الدول الغربية عامة.. ونذكر اتهامات ودعاوي «المؤتمر اليهودي العالمي» ضد فالدهايم، ولجان التحقيق التي شكلت، ووصول القضية الى هيئة الأمم المتحدة نفسها، بحيث فتحت ملفاتها وأرشيفها «للتفتيش الصهيوني»، ونذكر أيضا مواقف الدول الاوروبية وبرلمانها ولجنتها التنفيذية التي أعلنت عن حزنها العميق وذلك حين لم ترسل برقيات التهنئة البروتوكولية.. وكذلك مواقف تاتشر وميتران.. وصحف باريس ولندن وبون وغيرها..

ولو أعدنا اليوم قراءة مقالات وافتتاحيات لوموند أو ليبراسيون أو لوماتان أو غيرها لدهشنا وأصبنا بالذهول لنوعية الكلام المكتوب فيها ولنوعية الحملة التحريضية ضد فالدهايم، ولحجم الشتائم والبذاءات الواردة في أشهر صحف فرنسا وأوربا.

وكل ذلك لسبب واحد وحيد وهو ان في أوروبا محكمة أخلاق وقيم وآداب عليا هي الحركة الصهيونية العالمية أو المؤتمر اليهودي العالمي أو اسرائيل أو الماسونية، وهذه المحكمة فرضت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية إرهابا حقيقيا مدمرا على كل أوروبا.. فهناك محاكمات «نورمبرغ»، وهي محاكمة الحلفاء للضباط النازيين المهزومين في الحرب، وللعلم فان كل العرب والمسلمين لم يقرأوا كلمة واحدة عن هذه المحاكمات بل انه من العيب أو الممنوع الكلام عنها وكشف مجرياتها.. فالمغلوب مولع دائما بتقليد الغالب.. والغالب أوروبا الديمقراطية والليبرالية والشيوعية حاكمت النازية والفاشية في محكمة نومبرغ هذه، وصدرت الأحكام باعدام العشرات والمئات، وبتقسيم المانيا، واحتلالها، وتدمير اقتصادها ومنعها من بناء مصانع معينة ومن امتلاك اسلحة معينة، وبتغريمها تعويضات مالية خيالية، أغلبها تعويضات لليهود أي لدولة اسرائيل المولودة عام 1948 بمباركة قضاة نومبرغ ومساندتهم وبأموال التعويضات والغرامة الالمانية أساسا..

وخلال ذلك كان اليهود يشكلون «فرق الموت» وهي فرق ارهابية تخصصت في اختطاف وقتل عشرات ومئات المثقفين والمفكرين والسياسيين والعسكريين الالمان والفرنسيين المعادين للصهيونية.. وبعد فرق الموت جاءت سنوات التطهير.. وعانت فرنسا منها على سبيل المثال الى حد كبير.. فجرى قتل 48 ألف شخص في سنوات 45 — 46 فقط في فرنسا وحدها.. وتم الاستيلاء على الصحف والمجلات واعادة بيعها لليهود.. وتطهير أجهزة الدعاية والاعلام والفن والسينما والمسرح والراديو والتلفزيون ودور النشر وغيرها.. واستمر التطهير عدة سنوات وهو السبب الرئيسي في هيمنة الصهيونية اليوم على مقدرات أوروبا المالية والاعلامية والثقافية.

وبعد التطهير، تأسست دولة اسرائيل.. وكانت بداية التأسيس معسكر تجميع النمسا الحالية. إذ قامت المنظمات الصهيونية بدعم من دول الحلفاء أميركا وبريطانيا وفرنسا بتجميع 200 ألف يهودي من أوروبا الشرقية، وتحت إشراف بن غوريون شخصيا في معسكر أقيم خصيصا لذلك في القسم الاميركي من الأراضي الالمانية — النمساوية (المنطقة الجنوبية من المانيا كانت منطقة النفوذ الاميركي بعد احتلال الحلفاء لألمانيا والنمسا وتقسيم ألمانيا الى مناطق نفوذ)، وفي نهاية عام 1947 كان عدد اليهود الذين مروا عبر هذا المعسكر الى فلسطين حوالي نصف مليون!! (راجع مقالة التاريخ السري لنشوء اسرائيل — بقلم موريس داليفال — مجلة لوكرابويو Lecrapouillot الفرنسية — العدد رقم 80 — ربيع 1985 — صفحات 62 الى 69 — والمقالة مترجمة الى العربية في مجلة الوحدة الاسلامية الصادرة في بيروت — عدد 27 — بتاريخ 11 ذي القعدة 1406 — 18 تموز 1986).

أما فرق الموت والانتقام فقد جرى استيعابها في دولة اسرائيل حيث اخذت اسرائيل على عاتقها (وبدعم الحلفاء العلني) اختطاف ومحاكمة وقتل كل الالمان النازيين.. وتقول المجلة الفرنسية المذكورة في المرجع السابق (لوكرابويو — ص 96 — مقالة: فرق الموت أو المنتقمون) بأن احدى خطط الانتقام التي وضعها الصهاينة كانت تسميم مياه مدينة فورمبرغ ومحو سكانها كلهم من الخريطة.. وبعد فشل هذه الخطة صمموا خطة أخرى تقوم على تسميم خبز معسكر اعتقال النازيين في فورمبرغ وعدد سجنائه 36 ألف.. وفي ليل 13 — 14 نيسان — أبريل 1946 بدأت عملية تسميم العجين.. وانكشفت المجموعة قبل نهاية التسميم.. ولكن توفي عدة مئات من السجناء نتيجة لذلك.

وبعد ذلك بدأ عصر الارهاب الاسرائيلي، بدعم قانوني وشرعي دولي.. فالدول الكبرى اعترفت لاسرائيل بحق الوجود في الامم المتحدة (14 أيار 1948).. وبدأت مطاردة وقتل النازيين تحت سمع وبصر وتصفيق الغرب.. حتى أصبحت المسألة شرعية وقانونية لا جدال فيها أي أن الغرب أعطى إسرائيل وكالة قانونية دولية تقضي بملاحقة ومطاردة ومحاكمة وقتل كل من كان له أدنى علاقة بالدولة الالمانية النازية.

وعودة الى قضية فالدهايم، فلقد خيضت الحملة ضد فالدهايم في تل أبيت وباريس أكثر مما خيضت في النمسا.. فرغم أن مسألة الانتخابات مسألة داخلية بحتة، ورغم ان الشعب النمساوي «شعب ناضج ومستقل» ودولته «محايدة ومحترمة عالميا»، ورغم ان ماضي السيد فالدهايم الشخصي مسألة تخصه هو أولا ثم تخص بلاده ثانيا، الا ان من تابع الصحف الفرنسية خلال فترة الانتخابات النمساوية يرى العجب العجاب.. ولن نتحدث هنا عن الموقف الاسرائيلي الرسمي الذي أقام الدنيا ولم يقعدها ضد كورت فالدهايم وضد انتخابه رئيسا لدولة النمسا، وانما يهمنا موقف الصحافة الفرنسية التي حملت الموقف الاسرائيلي بحذافيره وشنت حملة تشهير ضد فالدهايم (وضد الشعب النمساوي حتى: كونه لم يستمع لكلام باريس وتل أبيت وانتخب فالدهايم رغم كل شيء).

لقد كان فالدهايم عسكريا في جيش بلاده. خدم في الجندية وحارب في الحرب.. وبما أن النمسا كانت المانية ونازية يومها، فان اسرائيل والصهاينة يريدون محاكمة فالدهايم على ماضيه النازي، وكانت اسرائيل قد تفننت ومنذ تأسيسها في اختطاف ومحاكمة واغتيال الضباط والنازيين (مثل ايخمان وقضيته

المشهورة)، وذلك تحت سمع وبصر لا بل بمباركة وتصفيق العالم بأسره!!.

وبدل طرح هذا الموضوع للنقاش، يتلهى مثقفونا وصحفيونا بالسؤال الغبي: «هل حقا كان فالدهايم ضابطا نازيا؟».

وماذا لو كان؟ فهل يؤدي ذلك الى تبرير منطق اسرائيل والغرب؟ هل تصبح إسرائيل وأميركا وفرنسا هي ميزان العدل والأخلاق ومعيار الحق والباطل؟

النازية والفاشية أم الديمقراطية والشيوعية؟

«الهولوكست» في اصلها اللغوي التاريخي تعني: «المحرقة» و«التضحية» ومنشآها ان اليهود كانوا يقدمون قربانا أو ضحية، دينية على شكل ذبيحة محرقة تماما بالنار.. وهذا التقليد اليهودي تحول مع الزمن الى الرمزية فأصبحت الضحية عبارة عن «عجل».. ثم اكتسبت كلمة هولوكوست معنى «الحرق التام النهائي كتضحية وفداء وتكفير»..

أما في القاموس السياسي فهي تشير الى «الابادة والموت والرعب الذي عاشه اليهود تحت حكم النازية في أوروبا».. وقد خرجت عشرات الأفلام والمسلسلات التلفزيونية والاذاعية، ومئات وآلاف الكتب والمجلات، حول «الهولوكوست».. ولا تمر سانحة في السينما الغربية، وفي التلفزة، وأجهزة الاعلام، دون التذكير بالهولوكوست وبمأساة وآلام اليهود.. مما جعل للاستعمال الحديث للهولوكوست، معان ورموز هامة: اليهود «كبش الفداء» الأبديين في «محرقة» العنصرية ومعاداة السامية.. ونحن العرب والمسلمين وكل المعنيين من قريب أو بعيد، هم الضحايا في هذه الأكذوبة — الاسطورة — الوهمية.

وليس الغريب أن تنتشر اسطورة الهولوكوست في أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، انما الغريب استمرار العرب والمسلمين في ترديدها وتحولها الى نقطة قياس ومعيار في الكثير من أحكامنا السياسية والأدبية والفنية وغيرها..

لاحظوا مثلا اننا حين نريد أن نصف عذابات والام الشعب الفلسطيني نتحدث عن الهولوكوست، والمجزرة، والابادة.. لا بل ان الاعلام الفلسطيني الرسمي يقوم بترديد الأكاذيب الصهيونية لكسب العطف العالمي فيقول «ان اليهود الذين عذبوا وقاسوا الامرين تحت حكم النازيين تحولوا اليوم إلى نازيين جدد»، وفي هذا الكلام اعتراف ضمني واضح بالمنطق الصهيوني والغربي.

ولاحظوا اننا حين نريد وصف نظام ما بالوحشية والقسوة والدموية نصفه بالفاشية والنازية.. فهل الديمقراطية أو الشيوعية أرحم؟ ومن قتل آلاف وملايين البشر في آسيا وافريقيا وأميركا اللاتينية؟ ومن احتل فلسطين وبلاد الشام ووادي النيل والمغرب الكبير، وجزائر الهند الشرقية وذبح أهلها وسبى أعراضها؟ أليست بريطانيا وفرنسا؟ ومن أكثر الأوروبيين استعمارا وأجراما بحق الشعوب؟ أليست دول بريطانيا وفرنسا وحديثا أميركا وروسيا؟ وماذا عن فيتنام وكمبوديا ولاوس والهند وفلسطين وأندونيسيا وأفغانستان، وغيرها؟ بماذا تختلف النازية أو الفاشية عن الشيوعية والديمقراطية؟ ولماذا تقع ضحية هذا التصنيف المعياري الذي يريد أن يقول أن النازية والفاشية شر مطلق، إذن الديمقراطية والشيوعية خير مطلق؟ إن لنا معيارنا ومنطقنا الخاص المستقل، فلماذا لانطبقه؟

وهل ناكازاكي وهيروشيما وفيتنام وجزائر المليون ونصف شهيد، وباكستان وبنغلادش وفلسطين وأفغانستان، ناهيك عن الموت جوعا وعطشا في افريقيا اليوم، لا تكفي كمعيار لوصف الظلم والوحشية والدمار؟.

ان ما نريد قوله اننا تابعون في عقلنا وفكرنا لمقاييس ومعايير الغرب.. وهذه التبعية خطيرة وخطيرة جدا.. وينبغي لنا الوقوف عندها مليا وطرح القضية للنقاش حتى نخرج أو بالاحرى نساهم في إخراج أمتنا من أسر التبعية، وحتى تقوم دعائم الاستقلال الفكري والثقافي على قاعدة متينة من الوضوح والدقة.

هذه هي القضية التي نطرحها للنقاش.. نطرح ذلك من خلال إيرادنا لموضوع الهولوكوست والنازية والفاشية والصهيونية وقضايا فالدهايم وغارودي وفوريسون وغيرها من القضايا.

ونقول ان علينا أن نفكر مليا وجديا بهذه الامور وان نعيد مراجعة تاريخ أوروبا كله.. فليس كل ما كتبته أووروبا عن نفسها صحيح.. وكما ان الكتابة الماركسية للتاريخ العالمي قد قسمت العالم والشعوب الى «قوى تحرر وتقدم» (هي الدول والاحزاب الشيوعية) «وقوى رجعية وتخلف» هي كل ما عداها)، فان القراءة الليبرالية والديمقراطية قد قسمته أيضا الى قوى «حرية وسلام وديمقراطية» وقوى فاشية ونازية وتخلف وبربرية»..

والماركسية والليبرالية عدوتان للفاشية والنازية.. وهم جميعا اعداء للاسلام.. فلا يجوز لنا أن نقرأ التاريخ من وجهة نظر الماركسية أو الديمقراطية الليبرالية أو الصهيونية أو الفاشية أو النازية.. ينبغي أن يكون لنا قراءتنا المتميزة المستقلة للتاريخ

وللوضع الدولي وللقوى العالمية.. ويستتبع ذلك استقلالية فكرية تنعكس على الثقافة والادب والفن والاعلام إبداعا خلاقا هو ما نفتقده حتى اليوم.. والعودة الى الاصول، والجذور، الى عقيدة الاسلام وفكره وروحه، وبناء ثقافته وسياسته وأدبه وفنه في عصرنا الراهن عملية تاريخية هائلة ومشروع حضاري كبير وأولى خطواته تكون بضرب أسس التبعية وبتحطيم أصنام الفكر وقيوده، وبإطلاق المبادرات باتجاه حرية نقدية حقيقية واستقلال فكري ثقافي متين..

وبدون ذلك سنظل نراوح مكاننا.. وسنظل نطرح نفس السؤال المطروح منذ قرن وأكثر:

لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟.

****

رسالة من :

الأُستاذ الفرقاني محمد الحبيب

أودُّ أن أُعبّر لكم عن تقديري للمجهود الذي بذلتموه أنتم والكتيبة العاملة بجانبكم، وتبذلونه لإخراج هذه المجلة في مضمون إسلامي حي متقدّم.

وإنّ الواجهة الإسلامية، لهي الواجهة العارية المفتُوحة التي يعتورُها الكثير من الأيدي والوسائل المختلفة بالتّحريف والتّخريب. ويأتي اختلاط المفاهيم وتشوُّهها حول الدين وتشاريعه ومضامينه الاجتماعية والسياسية والثقافية في مقدّمة هذه الواجهة. وتتطلّب بالفعل تظافر الجهود وتعاقُد الأَيْدي لتَوقّي بعض الأخطار، وردّ بعض العُدوان. خاصّة والإعلام المعاصر بوسائله وأجهزته الخارقة أَصْبح أخطر أدوات التكييف والتخريب وأعمقَها تأثيراً والتصاقاً بالنّاس.

وقد تصفّحتُ العدد (18) من «الهدى» وقرأْت بعض مواده فلمستُ حقّاً سعةَ الأُفق، وحُسن اختيار الموضوعات والمواد، وأعجبني بالخصوص البحث الذي يُناقش أطروحات ومفاهيم محمد أركون، وكذلك مباحث : «حقوق المتهم في الإسلام». و «حاجتنا إلى أُصول الفقه».

سيدي الأستاذ المدير المحترم.

أشُد على أيديكم، وأُحيِّي جهودكم وعملكم الإعلامي والثقافي في سبيل الإسلام، وتنوير الرأي العام بحقائقه ومضامينه الكلّية. أرجو اللّه تعالى أن يمدّكم دواماً بعونه وتوفيقه. ويُسدّد خُطاكم في هذه الواجهة النضالية الإسلامية الشّريفة. وإذا تيسّر ووجدتُ فجوة، فسأُوافيكم ببعض الكتابات إن شاء اللّه.

الهدى : نشكر للأُستاذ الفرقاني عنايته بالمجلة وتنويهه بجهودها ومواضيعها. ونحن نعتزّ بهذا التقدير والتّشجيع الصادق، من أمثال الأُستاذ الكريم.
كما يسرُّنا أن تحظى المجلة بنصيب من الكتابات الجادّة الهادفة، التي عُرف بها الأُستاذ الفرقاني، فمرحباً.

الأدب الصهيوني: الجذور والأحقاد

○ أحمد الأشهب

...من الحقائق المؤسفة التي لا يختلف فيها عاقلان، أن المثقف العربي أصبح يعيش على ثقافة المعلبات، على حد تعبير أحد المفكرين العرب حيث إن كل شيء أصبح جاهزا وباردا داخل الكتب والأسطوانات والأشرطة... كل هذا أدى إلى انعدام التواصل الحق بين المبدع والجمهور العربي... فالطبيب يصف الدواء بعد التعرف على نوعية المرض، ولكن المفكرين العرب، نظرا لانعدام معرفتهم بالمرض الذي أصيبت به الأمة، صنعوا الدواء بعيدا عن المرض وفرضوه على الجمهور العربي فرضا زاعمين أنه الأنجع... فانتشار المطبوعات بكثرة داخل الرقعة العربية، قد يعتبره البعض ظاهرة صحية، ولكن معظم المطبوعات الثقافية للأسف لا تمت بصلة لواقع هذا الزمن العربي الرديء... لقد أصبح المفكرون العرب أشبه بفلاسفة بيزنطة، العدو يحاصر المدينة ويريد أن يستبيح بيضتهم وهم يتجادلون ويتصارعون هل الدجاجة من البيضة أم العكس؟ وإذا ركزنا بصرنا في الخندق المقابل — أي خندق العدو — نجد العكس تماما إذ أن مِداد المفكرين لا يصب إلا في اتجاه واحد، هو مستقبل صهيون، رغم اختلاف النزعات السياسية والايديولوجية..

ففي الوقت الذي نجد أبناء صهيون ينقبون داخل نفايات الفكر العربي ويستخلصون من بين هذه النفايات كل ما يساعد على استئصال جذور الأمة العربية والاسلامية، نجد المفكرين العرب يشهرون أقلامهم ويشحذون عقولهم للدفاع عن فلسفات ثبت تواطؤ أساطينها مع الكيان الاسرائيلي[1].

...وقد لا أكون مبالغا إذ قلت أن الأدب هو من أشد الأسلحة الفكرية فتكا بالعقول، التي برع في استخدامها العدو، بينما أظهرنا فيها — نحن — فشلا ذريعا كما هي العادة في باقي العلوم والفنون الأخرى!!.

ومن خلال هذه العجالة، سأحاول جاهدا — إن شاء الله — أن أسلط الأضواء ولو كانت خافتة شيئا ما حول ترسانة العدو الأدبية وأهداف هذه الترسانة الخبيثة التي لا تهدف إلا لاجتثاث جذور هذه الأمة وطمس معالم هذه المدنية التي سادت العالم عدلا وعلما قروناً عدة...

1 — نشأة الأدب الصهيوني:

قد يظن الكثير من الناس أن الأدب الصهيوني حديث عهد بالظهور، غير أن هناك ما يؤكد أن لهذا الأدب جذورا قديمة قدم الأحقاد الصهيونية فقد عثر على هذه الأبيات لشاعر مجهول مكتوبة على أحد القبور اليهودية، وهي تشكل جزءا من المزمور 137، وتشرح مأساة اليهود بعد أن اجتاحت جيوش نبوخذ نصر البابلي حصون فلسطين وأخذت اليهود سبايا إلى بابل:

على ضفاف أنهار بابل.. هناك جلسنا..
وبكينا أيضا لما تذكرنا صهيون..
على أشجارها علقنا أعوادنا...
والذين سبونا سألونا كلام ترنيمة..
ومعذبونا سألونا أن رنموا لنا من ترانيم صهيون.
كيف نرنم ترنيمة الرب في أرض غريبة..
إن نسيتك يا أورشليم تنساني يميني..[2]

جاء في العدد 96 من سلسلة عالم المعرفة للباحثة الأميركية ريجينا الشريف أن الرئيس الأميركي ترومان (خلف روزفلت) كان يُحب هذه المقطوعة، ويرددها كثيرا وقال مرة: إني كلما قرأت قصة إنزال الوصايا العشر على موسى عليه السلام في سيناء إلا وأحس يوخز الضمير تجاه هذا الشعب المشرد..[3] وحتى لا أتيه في دروب الحقد الصليبي — اليهودي تجاه الاسلام والمسلمين لا أريد أن أطيل الكلام حول موقف الغرب الصليبي من القضية العربية — اليهودية، وحسبي الأدب الصهيوني وما يهدف إليه من تبرير لجرائم الصهيونية أمام الرأي العام الدولي...

وقبل أن نقتحم كهوف هذا الأدب أود أن أشير إلى قضية مهمة، وهي أن الأدب الصهيوني لا يعني بالأساس، الانتاج الأدبي لصهاينة من أصل يهودي فحسب ولكنه يضم أيضا زخماً هائلاً من الأدبيات لصهاينة غير يهود أصلاً، ولكنهم تبنوا الفكرة اليهودية ودافعوا عنها في استماتة لا تقل حماسا عن حماس الصهاينة أنفسهم إن لم تكن أكثر.

2 ـ الأدب الصهيوني والاصلاح الديني البروتستانتي

قبل فترة الاصلاح الديني البروتستانتي في أوربا، كان الفكر اليهودي محط استهزاء وسخرية من طرف الكاثوليك، حيث اعتبرت العقيدة الرسمية للكنيسة أن الفكر اليهودي المتمثل في عدة أساطير يهودية (كعودة المسيح عليه السلام)[4] و(العصر الألفي السعيد)[5] و(أسطورة شعب الله المختار) ـ بدعة يهودية يجب أن تحارب وتقبر، وقد أعلن الامبراطور الروماني أو غسطين حربا شعواء على هذه الأفكار في كتابه (مدينة الله) حيث اعتبر فكرة العصر الألفي السعيد حالة روحية وصلت إليها الكنيسة في عيد «العنصرة» أي بعد موت المسيح وبعثه.[6]

غير أن الأمر تغير بشكل مفاجيء مع بوادر الاصلاح الديني في أوربا، في القرن السادس عشر، على يد مارتن لوثر في ألمانيا وكالفن بسويسرا، حيث اعتبرت حركة الاصلاح أن اللغة العبرية هي اللسان المقدس الذي أوحى به الله لشعبه، فغدت قصص وشخصيات العهد القديم الذي يشكل التوراة اليهودية ـ مألوفة عند البروتستانت كالخبز يحفظونها ويرددونها عن ظهر قلب، وأصبح الشعب اليهودي هو شعب الغرباء الذين لابد وأن يعودوا إلى الأرض التي وعدهم بها أجدادهم في الكتب المقدسة، كما أن التعليم كرس الأدب التوراتي، فطغت تعاليم التوراة حيث لا هجرة إلا هجرة ابراهيم عليه السلام ولا وجود لمملكة إلا مملكة داود ولا اعتبار للشعوب التي استوطنت فلسطين، وهذا التلاعب بالتاريخ يعتبر بحق بدعة من بدع فترة الاصلاح البروتستانتي.[7]

ووسط هذا الجو المشحون بالفكر اليهودي المحرف، ظهرت إنتاجات أدبية في مختلف مجالات الأدب من شعر وقصة وأدب الرحلات، وكلها تسعى إلى إثارة الضمير العالي إلى (مأساة الشعب المختار) وتوجيه العطف والشعور الديني لدى الاوربيين خاصة إلى هؤلاء (المعذبين) !.. وحتى تكون أقرب من الموضوع، لا بأس أن نتطرق إلى بعض النماذج من هذا الأدب حتى نكون على بينة عما يحاك ضدنا وحتى نلفت نظر مفكرينا الذين شغلتهم مأساة الحلاج عن هموم الأمة...

قلنا قبل هذا أن أفكار العهد القديم غدت مألوفة لدى عامة الأوربيين كما أصبحت مصدر إلهام لفناني وشعراء العهد الجديد في اوربا بأكملها وخاصة في انجلترا حيث فرض العنصر الأدبي الصهيوني شخصيته المتميزة وأصبح يعامل بجدية وتفهم أعمق، الشيء الذي أعطى معادلة في الضمير الاوربي وهي فلسطين = اليهود، ولنستمع إلى أحد شعراء الاصلاح في القرن 16 بانجلترا وهو «ملتون» في قصيدته الشهيرة «الفردوس المستعاد»:

لعل الله الذي يعرف الوقت المناسب جيدا: سيذكر إبراهيم
وسيعيدهم نادمين صادقين
ويشق لهم البحر وهم عائدون مسرعين جذلين
إلى وطنهم كما شق البحر الأحمر ونهر الأردن
عندما عاد أباؤهم للأرض الموعودة
إنني اتركهم لعناية الزمن وللزمن الذي يختاره[8]

وقبل نهاية القرن الثامن عشر خاطب الشاعر الانجليزي وليم بليك أبناء وطنه:

استيقظي يا إنجلترا ـ استيقظي ـ استيقظي
فأختك القدس تناديك..
لماذا ينام هؤلاء المؤمنون كالأموات
ويغلقونها عن جدرانك القديمة[9]

وفي منتصف القرن التاسع عشر استأسد الأدب الصهيوني داخل الساحة الأوربية وأصبح كل من أراد من الأدباء وغير الأدباء ذيعان صيبته فلابد وأن يركب الموجة المتمثلة في إقحام اليهود في كتاباته، ولا يجب أن ننسى العلاقة الحميمة بين العقيدتين البروتستانية واليهودية لأنهما مستمدتان من كتاب واحد هو «العهد القديم» وهذا ما يفسر العلاقة بين الكيان الاسرائيلي والكيان العنصري في جنوب افريقيا، فقد نشرت صحيفة داي بيرجر صحيفة الحزب الوطني بجنوب إفريقيا في أحد أعدادها «لاسرائيل وجنوب إفريقيا مصير مشترك فكلاهما مشغول بالصراع من أجل البقاء وكلاهما في صراع دائم مع الأكثرية الحاسمة في الأمم المتحدة، إنهما يعتمدان على القوة في منطقة لولاهما لوقعت فوضى مناهضة للغرب»، وتمضي الصحيفة الرسمية للحزب الوطني في سردها «ومن مصلحة جنوب إفريقيا أن تنجح اسرائيل في احتواء أعداءها: الذين يعدون من أشد اعدائها الشريرين، وإذا ما أغلقت الملاحة حول رأس الرجاء الصالح بسبب تقويض سيطرة جنوب إفريقيا فإن اسرائيل ستثير العالم ضد ذلك».

خلال النصف الأخير من القرن الماضي تبنى الأدباء الغربيون قضية عودة اليهود إلى الأرض المقدسة، وهذا روبرت براو نينج يقول في قصيدته (يوم الصليب المقدس) التي نشرت سنة 1855:

سيرحم الله يعقوب
وسيرى إسرائيل في حماه
عندما ترى يهودا القدس

سينضم لهم الغرباء
وسيتشبث المسيحيون ببيت يعقوب
هكذا قال النبي وهكذا يعتقد الأنبياء

وأصدر الشاعر اللورد بايرون ديوانه الشهير «الألحان العبرية» حيث تقول إحدى قصائده التي تحمل عنوان «ابك من أجل هؤلاء»:

أيتها القبيلة الكثيرة التجوال وذات الصدر المرهق كيف
ستستقرين وتشعرين بالراحة ؟
إن للحمامة عشها، وللثعلب وكره
وللبشرية وطنها، أما إسرائيل فليس لها إلا القبر

وعلى نفس الوتر عزف الشاعر وليم ورزورث في قصيدته «أسرة يهودية»:

أختان جميلتان هادئتان وحلوتان
تقفان جنبا إلى جنب كزهرتين
إن نظراتهما تأسر الروح وتسلب
المسيحي كبرياءه..
إن هذا الجمال الذي منحتها إياه الأبدية
لم يمح عنهما
على الرغم من أنهما من ذرية كانت ممقوتة بشدة
ولم تتخلص من الاحتقار
إن حرسا خفيا يبقي ضوءا حيا عليهما
رغم الفقر والاساءة
وهو نابع من الينابيع العبرية
إنه يعطي هذه المجموعة المشتتة
ضوءا حول الوادي الصغير
في فلسطين، وهو من مجد الماضي
والقدس العزيزة.(10)

هذا في مجال الشعر، أما في مجال القصة التي تعتبر في نظري مدفعا رشاشا في ترسانة الأدب — في حالة استعمال لغة الحرب — والتي استغلها وبالأسف بعض محترفي الغزو الفكري ببلادنا ليشغلوا جماهير الأمة عن معركة المصير بترهات ما أبعد الأمة عنها...

في سنة 1874 طلعت على سطح الأدب الأوربي رواية (دانيال ديروندا) للروائية الصهيونية «جورج إليوت» وتعتبر هذه الرواية الأولى في تاريخ الأدب الصهيوني، وقد وصفها أحد أساطين الفكر الصهيوني بأنها كانت المقدمة الأدبية لوعد بلفور، حيث عبرت عنها شخصية اليهودي الصوفي الذي يسعى لهدف واحد، هو عودته إلى فلسطين وبالتالي عودة كل اليهود من خلال شخصه إلا أرض الميعاد..

وفي رواية (هب — الحديثة) لنفس الكاتبة عام 1879 جاء «إذا أردنا أن نفكر في مستقبل إسرائيل فمن المنطق أن نتناول سؤالا أساسيا: هل كتب عليهم أن يذوبوا تماما في الشعوب التي تشتتوا بينها، وأن يفقدوا كل أثر للاحساس كيهود أم أن هناك في علاقات العالم السياسية الشروط الحالية أو المستقبلية لاعادة الدولة اليهودية المغروسة في المركز القديم للوعي الوطني(11) كما صورت رواية «إينانهو» لوا لترسكوت وهو أول الروائيين الكبار في القرن التاسع عشر باوربا، لقد صورت هذه الرواية ربيكا المرأة ذات الميول الصهيونية كالتالي «إنها شخصية مثالية للمرأة اليهودية، وهي مخلصة في الدفاع عن قومها ودينها وشرفها، كما أنها تعبر بوضوح عن أحاسيس قومها».

وقد صورت رواية «الهائمون» (The Exodus) الفلسطينيون على أنهم «حثالة البشرية، لصوص، مجرمون، قطاع طرق ومهربو مخدرات وتجار رقيق أبيض».

كما ازدهرت فلسطين في أدب الرحلات، حيث صور هذا الأدب المسلمين في فلسطين في صورة «ذلك التركي الرهيب» وقد جاء في أحد هذه الأعمال (كان الكفرة المتوحشون بحروبهم المتواصلة وتدميرهم هم الذين جعلوا فلسطين قاحلة شبيهة بالصحراء» وكانت هذه الروايات تصور المسلم الفلسطيني وتلقبه بالكافر الفظ «كان الدمار الذي أصاب فلسطين التي كانت ذات يوم حديقة البشرية يعزى للاسلام»(12).

3 — الأدب الصهيوني المعاصر وضرورة المواجهة الاسلامية لهذا الاعصار المحموم:

في القرن الحالي ازدهر الأدب الصهيوني وانتشر كالسرطان في جسد القارة العجوز «أوربا» وقد صدر كتاب «في الفكر اليهودي» وصدرت ترجمته إلى العربية بالقاهرة سنة 1938 بواسطة حاخام يهود في الامبراطورية البريطانية ويعتبر هذا الكتاب «إنجيل الصهيونية» قدمه حاييم ناحوم والذي وصفه [بأنه لؤلؤة جديدة يستقبلها بسرور مزدوج، وابتهاج مضاعف... ستجد فيه الشبيبة اليهودية — فتيانها وفتياتها — شجاعة تساعدها في اقتحام مضمار الحياة، والخروج ظافرة منتصرة من المعركة...] ووصف [أن الحركة الصهيونية هي اليوم أعظم بل أشهر حركة يعرفها التاريخ اليهودي]، وقد ورد في أحد أناشيده ما يلي:

مثل قصف الرعد يشق لهيب السجن نصفين
سيدوّي في آذاننا صوت صادر من صهيون
وينادينا قائلا: يجب أن تظل نفوسكم توّاقة إلى الأبد
لأرض آبائكم وأجدادكم
حتى ننقذ من يد الأعداء نهرنا المقدس
وعندما نعود إلى ضفاف الأردن سنحط رحالنا
فقسما باسمك المقدس، لن نتنصل من القتال
إذ اما دقت طبول الجهاد...(13)

لا زالت الثقافة اليهودية هي المسيطرة على صنع القرار نظرا للارتباط العميق الجذور بين الثقافة الغربية

والصهيونية، حيث يقول العالم السياسي اليهودي هارون ولدا فسكي [إن إسرائيل من الغرب ومن صنعه وله، سواء أحب الناس ذلك أم كرهوا وإسرائيل بقرارها المنظور تحس وتشم وتبدو كبلد غربي، وهي ليست فيتنام، إنها ليست شيئا خارجا عن محيط الغرب بل هي لبه، وحينما تتصرف الولايات المتحدة وكأن لا مصلحة قومية لها في إسرائيل، فهي بذلك إنما تتخلى عن هويتها الدينية والأخلاقية والسياسية والثقافية.

إذن فسوف لن يغير الغرب نظرته الحاقدة للعرب ولو بقينا نلتمس العدل من هيئة الأمم قرنا آخر.

وبما أن الأدب الصهيوني تسرب بعمق داخل التعليم الأوربي وأصبح يشكل جزءا مهما من مقررات المدارس الابتدائية والثانوية، إذ تقول إحدى الدراسات أنه من بين الكتب العشرين التي تدخل ضمن مقرر تلامذة الثانوي بالثانويات الأميركية لا يوجد كتاب واحد يمتدح الشعب العربي، بينما كان الكثير منها مؤيدا لاسرائيل(14).

وهذا لا يدل على أنه ليس هناك أي في الغرب — مفكرون موضوعيون يبحثون عن الحقيقة ولكن لضعف النفوذ الأدبي العربي وقوة الآلة الأدبية لدى . الخصم، اندحرنا إلى جحورنا وبدأنا نتصايح «الموت لاسرائيل — الموت للعلماء» بل إن أدباءنا الذين يكتبون باللغتين الفرنسية والانجليزية أصبحوا مجرد ابواق دعاية للفكر الغربي ومرتزقة من طرف الساسة في الغرب للتدليس والتلبيس على أبناء الأمة الاسلامية وتشكيكهم في عقيدتهم وتراثهم الحضاري الضخم، وتتساءل لماذا هذا التحامل على قضيتنا وإعطاءها كل الوجهات إلا الوجهة الاسلامية؟ ويأتي الجواب ببساطة إن غالبية مفكري العالم الاسلامي عقولهم مؤممة للغير فماذا ننتظر منهم... وأخيرا وليس آخراً، أهيب بكل من يحمل ضميرا حيا من مفكري العالم الاسلامي أن يفتحوا الملف الفكري للعدو، كما فتح هو ملفنا الفكري ليقصم ظهورنا، وإنما هذه مبادرة فردية بسيطة أتمنى أن تحذو حذوها مبادرات أخرى أكثر عمقا وعلمية والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

هوامش

— (1) على سبيل المثال زعيم الوجودية «جان بول سارتر» والذي يدافع عنه اليسار العربي، قاد حملة تبرع لصالح إسرائيل عقب حرب 1967 لتوطيد دعائم الديموقراطية الاسرائيلية وسط صحراء الديكتاتورية العربية على حد تعبيره.

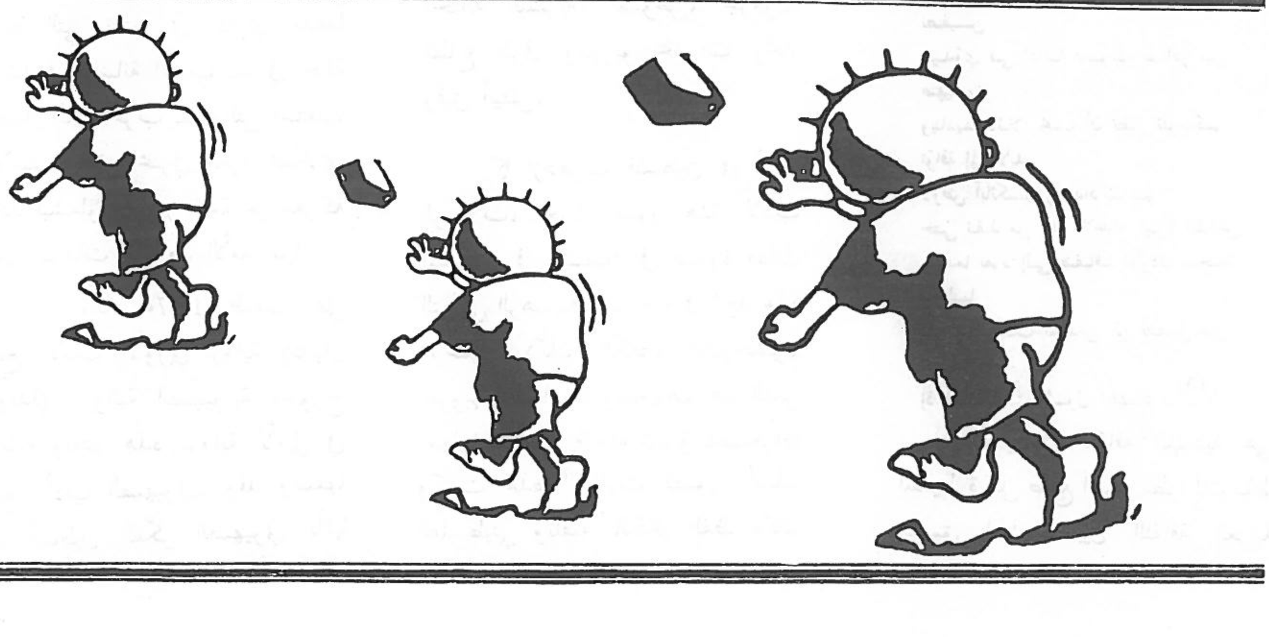
— (2) «ثمن إسرائيل» لألفريد ليليانتيل.

— (3) «الصهيونية غير اليهودية: جذورها في التاريخ العربي» العدد 96 من عالم المعرفة تأليف ريجينا الشريف ترجمة محمد عبد العزيز عبد الله.

— (4)، (5)، (6)، (7)، (8)، (9)، (10)، (11)، (12) نفس المرجع السابق.

— (13) مجلة الأمة العدد التاسع والخمسون — ذو القعدة 1405 هـ حزيران (يونيو) — الصفحة 24.

— (14) الصهيونية غير اليهودية جذورها في التاريخ العربي» ريجينا الشريف.



مجتمعنا المغربي وأزمة الثقافة

● الأستاذة زينب أم الهدى

يعتبر مشكل الثقافة من أبرز المشاكل التي تعاني منها المجتمعات العربية والإسلامية لأن الثقافة تمثل الوجود الروحي والفكري لهذه المجتمعات، بل إنها تعتبر بحق القلب النابض في حياة الأمم. وسوف نعمل على توضيح بعض أبعاد وآثار هذه المشكلة بالنسبة لمجتمعنا المغربي لتوعية القارئ الكريم بحقيقتها وحقيقة ذاته، خصوصاً وأن المثقفين في مجتمعنا العربي والإسلامي قد انشغلوا منذ النزوح الاستعماري بالتفكير في هوية هذا المجتمع والتساؤل حول وجود ثقافة نابعة منه.

ولتسليط الأضواء على واقعنا الثقافي اليوم يجدر بنا بيان الخلفيات الاجتماعية ـ التاريخية التي تتحكم في هذا الواقع، الشيء الذي يتطلب منا العودة إلى مرحلة الحماية لتوضيح المحددات الأساسية للوضع الفكري واللغوي الراهن، وتحديد أبعاده الإيديولوجية، لأن ما نشاهده اليوم من خلط فكري وتنوع في المشارب والرؤى وتعدد في المواقف ليس وليد الصدفة بل هو نتاج طبيعي لتطور غير طبيعي في بنية المجتمع المغربي ناتج عن الصدمة الاستعمارية التي عرفتها بلادنا في مطلع هذا القرن.

1 ـ الحماية والمشروع الثقافي الاستعماري

لقد هيأت الأطر الثقافية للحماية المشروع الثقافي الاستعماري. فنجدفي المذكرات والتعليمات العديدة التي حررها «ليوطي»،[1] وفي كتابات مساعديه حول منجزات فرنسا التعليمية بالمغرب مجموعة من المؤشرات حول هذا المشروع، وقد ارتكز على مجموعة من الأسئلة منها : لماذا تعليم المغاربة ؟ وبأية طريقة ؟ وأي مغاربة ؟

وكانت الإجابة عن هذه الأسئلة تحدد مشروعاً تعليمياً تحت شعار «تلقين حضارة» l'apprentissage d'une civilisation.. يهدف وبطريقة منهجية إلى إنتاج وإعادة إنتاج الوضعية الاستعمارية، تلك الوضعية التي وصفها «فرانز فانون F. Fanon بأنها «توقف الثقافة الوطنية فليس من الممكن الحديث عن ثقافة وطنية أو عن حياة ثقافية وطنية أو إبداع ثقافي أو تحول ثقافي وطني في إطار التّسلّط الاستعماري، فالثقافة الوطنية تحت السيطرة الاستعمارية ثقافة مراقبة بشكل منظم»[2].

أ ـ الحماية والتعليم :

عملت الحماية على تكوين نظام تعليمي مرتكز على أسس استعمارية واضحة، فأنشأت لذلك تعليما أوروبياً يشتمل مثل التعليم الفرنسي على مدارس ابتدائية وثانويات ومدارس تقنية ومهنية، وكانت البرامج المطبقة في هذا التعليم برامج فرنسية تعتمد على المناهج والكتب الأوروبية، وتُلقَّن من طرف أساتذة فرنسيين بهدف الحصول على شهادات فرنسية. وكانت مهمّة هذه المدارس هي إنتاج وإعادة إنتاج القوة البشرية والتقنية القادرة على تكريس الظاهرة الاستعمارية هذا إلى جانب تضييق الخناق على بقايا التعليم الإسلامي الذي كان يدرس في جامعة القرويين وما شابهها، إن لم نقل القضاء عليه نهائياً، وذلك

بـالطعن في كل مـا هو إسلامي أو عربي، وإثـارة الشّكوك حوله حتى ينظر إليـه أهلـه بـالازدراء والاحتقار، وبـذلـك يضمن المستعمر طغيان ثقافتـه التي تُقـدّم في قـالب برّاق، وتعرض عرضاً حافلاً بالبطولة والقوة.

وقـد عملت فرنسـا على إنشـاء نوع آخر من المـدارس يتمثّـل في «المـدارس الفرنسيـة البربريـة» التي أعطـاهـا «مارتي»[3] التعريف التـالي : «المـدرسـة الفرنسيـة البربريـة هي إذن المـدرسـة الفرنسيـة بـالتعليم والحيـاة، البربريـة بالاختيار والوسط، الفرنسية بـالمعلم، البربرية بـالتلاميـذ، وليس هنـاك أي مجال لـوسيـط أجنبي، إن أي شكـل من أشكال تعليم العربية، إن أي تدخّل من جانب الفقيه (كـذا)، إن أي مظهر من المظاهر الإسلامية ستقصى منها بصرامة».

وواضح أن هذا المقيم الفرنسي كان يسير على المبدأ الـذي نصّت عليـه الحمـايـة الفرنسيـة «فرّق تَسُـد»، والـذي أصدرت على إثره الظهير البربري الـذي كـان يهـدف إلى خلق صراعات بين أبناء المجتمع الواحد وتقسيم المغرب إلى مناطق متباينة حتى يسهل عليها السيطرة والاستيلاء.

وقـال كـلاي[4] : «يجب أن نعلم البربر كـل شيء مـا عدا الإسلام، وأن تحذف من مدارس البربر الديانة الإسلامية واللغـة العربيـة، وأن تكتب اللّهجـات البربريـة بحروف لاتينية»[5].

كان كلاي هذا يـدرك تمـام الإدراك أن الشيء الـذي وحّد بين أبنـاء المغرب هو الإسلام لـذلـك حـاول بسيـاستـه إقصاء الإسلام تحطيم تلك الوحدة وتشتيت شمل المغاربة.

ب ـ الاستعمار والتربية :

وقد تابع المستعمر مخطّطه في ميدان التربيـة الـذي لا ينفصل عن ميدان التعليم فالنشء كـان بين يـديـه، وقـد عمل من ثم على إخراج عقول عـاجـزة عن التّفكير النّقـدي، عقول تابعة له، لا تملـك إلا النّقل والتّنفيـذ والإذعـان. ومن هنا فالتربية في ظروف الوضع الاستعمـاري كـانت جـامـدة ومشوهـة لأنـه لم يكن من مصلحـة الأجنبي المستعمر أن تروج تربيـة حيـويـة وفعـالـة، تعلم الطـلاب روح النّقـد والإبداع بل كانت الكتب المستعملة في المدارس والنفسيـة التي يُرَاد خلقهـا لـدى النشء تميل بـالطبع إلى التقليل من قيمة الثقـافـة الوطنيـة مع تمجيـد فضـائل «السيـد الأجنبي» وثقافتـه. وكـان من أبرز أهـداف التربيـة الاستعمـاريـة بث الروح الانهـزاميـة في المـواطنين بـل ومحـاولـة غرس عـدم جـدوى ثقـافتهم وعجزهـا وتخلّفهـا لتتمكّن من التّحكم فيهم وتحويلهم إلى كائنات مطيعة.

ج ـ الاستعمار واللغة :

شكلت اللغة الفرنسيـة بكل حمولاتهـا الإيـديولوجيـة نقطة الارتكـاز الأسـاسيـة في النّظـام التعليمي الاستعمـاري حيث عمل دهـاقنـة الحمـايـة منـذ البـدايـة على نشر اللغـة الفرنسيـة التي كـانت في اعتقـادهم أنجح وسيلـة لبسـط سيطرتهم على المغرب، وفي هـذا الصّدد قـال «ليـوطي» : «إن تعليم الفرنسية بطريقة ذكية للأطفال المغاربة هو أيضاً وبصورة تكـاد تكون حتميـة تعليمهم التفكير على الطريقـة الفرنسية» وهذا ما بينه «ماكس مولار» في هذه القولـة : «إن الفكر واللغـة شيء واحـد وهمـا كـوجهي قطعـة النّقـد، فمـا نسمّيـه الفكر ليس إلا وجهـاً من وجهي النّقـد والآخر هـو الصوت المسموع»[6].

أما اللغـة العربيـة فـإنهـا اقتصرت على القيـام بـدور : اللغـة ـ الشـاهـد (langue – témoin)، والتي أصبحت متخفيـة وثـانويـة وتقتصر على تـدريس بعض المـواد الهـامشيـة، في الـوقت الـذي أصبحت فيـه اللغـة الفرنسيـة أداة التـواصـل الـوحيـدة بين الشعب والمستعمر بـاعتبـارهـا لغـة المختبر والعقلانية والعلم.

وقد أدّى هـذا الوضع اللغوي خلال فترة الاحتلال إلى مشاكل متعـدّدة في المغرب بعـد الاستقلال منهـا مـا يعرف بمشكـل الازدواجيـة اللغـويـة أو تعـدد اللّغـات حيث أن المغرب أخذ يعرف بالإضافة إلى ثنـائيـة اللهجة (diglossie) (اللغة الفصحى والدّارجة) تعدّدية لغويـة أو ربـاعيـة لغويـة (quatri linguisme) بالنّسبـة لبعض فئـاتـه (بربريـة ـ عربيـة دارجة ـ فصحى ـ فرنسية) أو ثلاثية لغويـة بـالنّسبـة للبعض الآخر.

والأدهى من ذلك أن الأمر هنا مرتبط بالوضعيـة التي احتلتها اللغة الفرنسيـة في المغرب، والتي أصبحت معرفتهـا امتيـازاً يستثمر ويستعمل لتبرير الحق في دخـل أكثر من

الآخرين وسلطة أكثر، وجاه أكثر، بل وإنها أصبحت تلعب دور اللغة «الناقلة» في العديد من القطاعات الحيوية في المجتمع المغربي.

وهكذا ففي الوقت الذي أصبحت فيه اللغة الفرنسية الأجنبية تحتل وضعية مسيطرة كلغة للعلوم والتقنيات وكل ما هو حي وجذاب، نجد اللغة العربية الفصحى «اللغة الوطنية واللغة الرّسمية للبلاد بنص الدستور» تقصى إلى الدّرجة الثانية كلغة للآداب والعلوم الإنسانية وقد صور د. عبد الله العروي هذا الوضع بقوله : «كل ما هو عصري، علمي متقدّم، نافع، نجده مرتبطاً في أذهان الناس بسبب هذا الوضع والممارسة اليومية باللغة الفرنسية، في حين أن اللّغة العربية ملازمة للأقطار القديمة والتّقاليد العتيقة والأنظمة غير النّافعة»[7]. وهكذا أصبح المغرب يعيش حالة تبعية لغوية لفرنسا إلى يومنا هذا.

د ـ الاستعمار والإعلام

أدرك المستعمر ما لوسيلة الإعلام من خطر فاستخدمها استخداماً ناجحا في غزوه الفكري المنظّم للشعوب المستضعفة، وهكذا عمل الاستعمار الفرنسي على محاولة إقناع المغاربة بصوابية الفكر الغربي وبدونية الفكر المغربي من أجل تغيير موقف الشعب المغربي اتجاه الغرب واتّجاه نفسه، خصوصاً وأن ما كانت تبثّه وسائل الإعلام من أفكار ومذاهب وقيم ثقافية وأخلاقية وحضارية إنّما كان من أجل التّشجيع على الاستهلاك وبث الاضطراب النّفسي بين أفراد المجتمع المغربي، وهو ما انعكس فيما بعد في صورة استلاب خطير تمثّل في التّمرّد على القيم الأصيلة للمجتمع.

هـ ـ خلق القابلية للاستعمار :

فرض المستعمر على حياة الإنسان المغربي عاملاً سلبياً أسماه المفكر الجزائري «مالك بن نبي» بعامل القابلية للاستعمار[8]، فنرى هذا المستعمر يقبل الاحتواء والتوجيه، كما يقبل اسم «أهلي» بمعناه القدحي، ويقيس نفسه بمقياس المستعمر.

إن المستعمر كما يقول «فرانز فانون» : «يبلغ في تماديه أنه لا يكتفي بأن يلغي الوجود الموضوعي للأمّة والثقافة المضطهدتين، وإنّما يبذل جميع الجهود اللازمة من أجل أن يحمل المستعمر على الاعتراف بتخلّف ثقافته التي تستحيل إلى تصرّفات غريزية، وعلى الاعتراف بأن أمّته لا وجود لها بل وعلى الاعتراف بأن تكوينه البيولوجي نفسه غير منظم وغير كامل..!»[9].

ويعزز المستعمِر كل تصرّفاته وأعماله بنظرية فكرية «علمية» في نظره تهدف إلى أن تعطي للاستعمار مفهوماً فلسفياً قوامه أن الأوروبيين باعتبارهم أكثر تقدماً من الأمم المستعمرة، فإن الحضارة و«الواجب» يَكِلان إليهم أمانة إنسانية هي تمدين هذه الأمم وتحديثها، ولذلك فمن حقّ المستعمر أن يسيطر عليها وأن يُعِدّها للتّقدّم والتحديث مبرراً عمله، بأن الجنس الأبيض هو صاحب الحضارة، وأن الأجناس الملونة هي أبناء الأمم الواقعة تحت نفوذ الاستعمار، لأن من واجبه كما يدّعي «تحضير» الأمم المتخلفة لأنها رسالة الرّجل الأبيض المتقدّم إلى العالم الأسود أو الأصفر المتخلّف شريطة أن يتم هذا التّحديث والتحضير بإخضاع هذه الشعوب وإدماجها في وحدة الحضارة الغربية حتى يتمّ الاعتراف بالتّبعية للسيد الأبيض المتقدّم.

وقد أشار «إرلوند توينبي» المؤرّخ المشهور إلى هذا المعنى حين قال : «إن طغيان الغرب يتجلّى في تحويل تجاربه إلى قوانين عامّة للجنس البشري فالعالم عند الغرب هو مادة الحضارة للجنس الأبيض الممتاز !!»[10].

ومن هنا نرى كيف أن المستعمر كان يهدف من وراء التعليم خلق موظفين ومثقّفين تابعين له، وفي الثقافة استهدف خلق جيل من المؤمنين بالفكر الغربي والثّقافة الفرنسية. وهذا الجيل بالطّبع سيعكس افتتانه بالثقافة والحياة الأوروبيتين في كتاباته، وفي توجيهه للحياة الثقافية والاجتماعية من خلال الوظائف المهمّة التي سيشغلها سواء في ميدان التربية أو التعليم أو في ميدان الوظائف العامة.

ولما كان الاستعمار هو «نفي منظم للآخر» كما قال «فرانز فانون» من حيث هو قرار صارم بإنكار كل صفة

إنسانية على الآخر[11]، فكان من الطبيعي أن يقوم الشعب المستعمر، ويتساءل هذا التّساؤل : من أنا في الواقع ؟. هذا التّساؤل أدّى إلى أن تقوم معظم الشّعوب التي كانت في قبضة الاستعمار، ومن بينها المغرب بتحرّكات تحرّرية، وبدأت تباشير نهضة ثقافية تلوح في الأُفق.

2 ـ الثقافة في عهد الاستقلال

بدأت الانتفاضة الفكرية في المغرب متمثّلة في الحركة السلفية التي قادها في أول الأمر الشيخ أبو شعيب الدّكالي من أجل محاربة البدع والخرافات والشّعوذة والرّجوع بالدّين إلى ما كان عليه السلف الصالح. ولكنّها لم تلبث أن تطوّرت على يد تلاميذ الشيخ إلى معركة بين القديم والجديد في توافق مع حركات الإصلاح في بقية أقطار المغرب العربي، وبذلك كانت الدّعوة السّلفية تمثّل تياراً ثقافياً مؤثّراً من تيارات اليقظة الثلاثية : التيار الذي حملته السنوسية وتيار الإصلاح المدني الذي دعا إليه خير الدين في تونس والتيار السّلفي المرتبط بالدّعوة الوهابية.

وكان هدف السّلفية في المغرب كما حدّدها المرحوم علال الفاسي تنحصر في ثلاث نقط : 1 ـ تطهير العقيدة، 2 ـ تجديد أساليب التعليم، 3 ـ الدفاع عن الدين.

وقد قاومت السّلفية فكرة علمانية الدّولة، وعملت على تجديد أساليب التعليم والتربية وتصفية مضمونها من التشويهات الاستعمارية.

ومن ثمّة فقد كانت الحركة الفكرية في المغرب في عهد الاستقلال تقوم على إيمان صادق بالمقومات العربية الإسلامية والوطنية الجريئة لمقاومة فرنسا والغرب مع الارتباط بالمشرق العربي وبالعالم الإسلامي وبدعوة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمان الكواكبي.

إلا أن التيار الغربي القائم على الفرنسة الفكرية كان قد أخذ مكانه عند مجموعة كبيرة من المغاربة المثقفين كما رسم ذلك الاستعمار، وأصبح هؤلاء يؤمنون بأن احتلال فرنسا كان ضرورياً ولا غنى عنه في وقت كانت البلاد ضعيفة وعاجزة عن حماية نفسها، ومن ثم فقد أدار هذا التيار ظهره للإسلام وللغة العربية، وأكّد القول بأن العقول في المغرب لم تتفتح إلا بفضل اللغة والثقافة الفرنسيتين. وبذلك وقع مُتَبَنُّوا هذا التّيار في فخّ الاستعمار خصوصاً وأن المدارس التّبشيرية المنتشرة في العالم العربي والإسلامي كانت تعمل على التّرويج للحضارة الأوروبية وتحبيبها إلى نفوس الطّلاب الذين انتظموا فيها. حَمَل هذه الدّعوة مثقفون ودعاة وزعماء سياسيون لهم نفوذ وبذلك برز الوجه الغربي واختفى الوجه العربي والإسلامي إلى حين.

ولكن بعض كتاب المغرب ومفكريه عرفوا ما يهدف إليه هذا التيار على إطلاقه، وهو إذابة الشخصية المغربية في الشخصية الفرنسية، وإرساء قواعد التبعية الثقافية، فنهضوا لمقامته محاولين تحرير الفكر من نفوذ اللغة والثقافة اللاتينيتين، مثل المفكر المغربي العلامة «عبد الله كَنون» في كتابه «النّبوغ المغربي».

أ ـ الأَصالة والمعاصرة :

وهكذا أصبح الفكر المغربي كما يقول المفكّر الجزائري «مالك بن نبي» على إثر الصدمة الثقافية التي اجتاحته، وما تسبب عنها من مركّب نقص ينحاز إلى معسكرين أحدهما يدعو للتّمكن من الفنون والعلوم والأشياء الغربية حتى اللّباس، والآخر يحاول التّغلّب على مركّب النّقص ويتناول حقنة اعتزاز يعلّل بها النّفس[12]، ومن هنا طرح مشكل الأَصالة والمعاصرة. وملخص هذا المشكل يكمن في جملة من الآراء تكون إما لصالح الأَصالة أو لصالح المعاصرة. أي هل تؤخذ الحضارة الغربية كلّها أم يؤخذ الصّالح منها فقط ؟، وهل تؤخذ هذه الحضارة دون الثقافة الغربية أم تؤخذ هي والثقافة الغربية ككل ؟ واتخذ هذا الصراع بعد حين مظهراً سياسياً تمثّل في اليمين واليسار، ووقع خلط بين الاحتياج إلى أسباب التقدم التكنولوجي والإبقاء على القيم الأساسية. وتعددت المواقف اتّجاه التراث : هل نقبله ؟ هل نرفضه ؟

وتبلور هذا الاختلاف وأصبح واقعاً مرّاً داخل المجتمع المغربي، إذ تعدّدت التيارات بعد انفتاح المغرب فور الاستقلال على غيره من الدول، فهناك التيار الغربي الاستعماري، والتيار الماركسي، والتيار الوجودي والتيار

العلماني الإلحادي والتيار الإباحي في الوقت الذي انعدمت فيه الثقة بالنّفس لدى أغلبية المثقفين المغاربة، ووقعت مجموعة كبيرة منهم في نوع من الاغتراب الذي أدّى إلى انهيار الشّخصية المغربية ووقوعها في أزمة هوية خطيرة.

ب ـ صراع التيارات الفكرية :

كان الإنسان المغربي هو الضحية الذي تصارعت حوله مختلف التيارات الفكرية الأجنبية محاولة صبغه بصباغة غريبة عن حقيقته. وهنا يحضرني ذلك الحديث النبوي الشّريف الذي يعكس ذلك الواقع المر : «توشك أن تداعى عليكم الأُمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، قيل : أومن قلّة نحن يومئذ يا رسول الله، قال لا، ولكنّكم غثاء كغثاء السيل».

نعم، أصبح المثقفون المغاربة يعتقدون أنهم يتمتّعون بحرّية كاملة تسمح لهم بحيازة أفضل لمنتجات الآخرين الثقافية، تلك المنتجات التي أوقعتهم في التغريب وفي الاغتراب والاستلاب الذي عرفه ج «مارسيل» بقوله : «إنني أعني بالاستيلاب الحالة التي يبدو فيها الإنسان وقد أصبح أكثر فأكثر غريباً عن ذاته وعن جوهره، بحيث يكون هذا الجوهر موضع شك»[13].

وكما قال الشاعر :

وأي اغتراب فـــوق غربتنـــــا التي
لهــا أضحت الأعــداء فينــا تتحكّم[14]

أصبح الفكر في المجتمع المغربي خاضعاً لمجموعة من التيارات نذكر منها :

*** ـ التيار المادي الماركسي :**

يتبنّى هذا التيار إيديولوجية كافرة لأنه لا يؤمن بالأديان، وتتعارض مبادئه مع مبادئ الإسلام المادية والروحية معاً، لأن ماركس لما سعى إلى تعديل وضعية الرجل الهيجيلي الذي يمشي على رأسه قد أخطأ المعادلة، وجعل الرجل يمشي على بطنه، على معدته[15]، وبذلك فقد سطح ماركس الموقف البشري إزاء الواقعة التاريخية إذ ردّه إلى علاقة رياضية آلية متبادلة بين الإنسان والمادّة، إذ أن الإنسان عنده صنو المادية إن لم نقل تابع لها في تغيراتها الدينامية[16].

هذا إضافة إلى أن الإيديولوجية الماركسية حينما حاول التابعون لها تطبيقها داخل المجتمعات العربية فشلت في تحقيق الوحدة العربية لأنّها ولدت في بيئة وظروف تاريخية معيّنة وأوضاع اجتماعية معروفة خلقتها ظروف خاصّة ليس لها طابع الاستمرارية، وهي ظروف القرن التاسع عشر والثورة الصناعية التي تبدّلت في القرن العشرين، وهي ظروف مغايرة تماماً لظروف الأُمّة العربية التي كانت موحّدة في ظل الإسلام.

ثم إن الإيديولوجية الماركسية كممارسة سياسية واقتصادية وثقافية تخرج أي شعب من شعوب العالم الثالث من الإمبريالية الرأسمالية لتضعه تحت الهيمنة الشيوعية، ولعل الأحداث التاريخية تثبت أن ما يدعيه الاتّحاد السوفياتي بأنه يساعد شعوب العالم الثالث عامّة والشعوب العربية خاصّة وأنه يتعاطف مع الحركات التّحرّرية في العالم ما هو في الحقيقة إلا تزييف وخداع لتحقيق مصلحة الشيوعية السوفياتية ليس إلا. ونذكر من هذه الأحداث على سبيل المثال لا الحصر : ركوب الاتحاد السوفياتي موجة القضية الفلسطينية منذ أيام جمال عبد الناصر واستغلاله لها إلى أقصى مدى، ومدّه لإسرائيل بأكبر طاقة بشرية وأمهرها من اليهود الرّوس في حرب 1967، ومساعدته لها لاحتلال سيناء والضفة والجولان.

ثم غزوه لأفغانستان واستعماله للأسلحة الممنوعة دولياً في هذا الغزو.. ومع الأسف نجد من أبنائنا المخلصين للإيديولوجية الماركسية من يضع مبرّرات لهذا التّدخل الاستعماري فيقولون : إن الاتّحاد السوفياتي لم يتدخّل في أفغانستان إلا ليحميها من الإمبريالية الأمريكية..!!.

ويتخذ الاتحاد السوفياتي كذريعة له الإيديولوجية الماركسية الشيوعية التي تعتبر الصراع القائم الآن بين العرب واليهود ليس صراعاً بين قوميتين أو بين دينين وإنما هو صراع مع الإمبريالية والقوى الرجعية في داخل إسرائيل والأُمّة العربية، أما البروليتاريا في كل من إسرائيل والبلاد العربية فهم طبقة واحدة تجمعهم الأخوة الاشتراكية، لأن

انقسام المجتمع إلى طبقات متناحرة هو أشدّ عمقاً وأبعد أصولاً من انقسام الناس إلى أمم. وفي هذا قال ماركس نفسه : «إن البروليتاري أقرب إلى زميله البروليتاري في بلد آخر منه إلى البرجوازي في بلده»[17]. ومن ثمّة فالشيوعية تهدف إلى غزو العالم والهيمنة عليه كما فعلت الإمبريالية الرأسمالية، ولازالت تفعل، فهذا ماركس يقول : «أمامكم العالم وعليكم أن تكسبوه» ويقول لينين : «يجب على المناضل الشيوعي أن يتمرّس بشتّى ضروب الخداع والغش والتّضليل، فالكفاح من أجل الشيوعية يبارك كل وسيلة تحقّق الشيوعية، يجب أن يكون مفهوماً أن الشيوعية غاية نبيلة، وأن تحقيق الغاية النبيلة يتطلّب في كثير من الأحيان استخدام وسائل غير نبيلة، وأن تحقيق الغاية النبيلة يتطلّب في كثير من الأحيان استخدام وسائل غير نبيلة، ولهذا فإن الشيوعية تبارك حتى الوسائل المناهضة للأخلاق مادامت هذه الوسائل تساعد على تحقيق أهدافنا الشيوعية»[18].

من خلال كلام زعماء الشيوعية تظهر حقيقة هذه الإيديولوجية، وأنها استغلالية في طبيعتها لأن الاستغلال طبيعة لاحقة بالنّظم المادية أياً كان تركيبها، فكما أن النّظام الرأسمالي يميل بطبيعته إلى استغلال الشعوب المتخلّفة، فإن النّظام الشيوعي يتجه أيضاً بحكم أهمية القيم المادية الكامنة فيه إلى استغلال هذه الشعوب، وإن اختلفت الأساليب وتباعدت السّبل[19].

* ـ التيار الليبرالي :

هو تيار استعماري اعتمدت عليه الإمبريالية في إرساء دعائمها، ويحمل إيديولوجية كافرة لا تؤمن إلا بالمادة، وقد سمى المؤرّخ المشهور «إرلوند توينبي» في كتابه «المادة والتغيير» هذه المذاهب الفكرية أو الإيديولوجيات الحديثة وخصوصاً منها الليبرالية والشيوعية بالأديان البديلة والتي ظهرت على أنقاض الأديان القديمة. كما ألف فيها «جوليان هكسلي» كتابه الذي سمّاه اسماً معبراً عن حقيقتها : «أديان بغير وحي».

وتتبنى هذه الإيديولوجية الطّبقة الأرستقراطية التي ترتبط فكرياً وروحياً بالحضارة الغربية لأن الاستعمار حينما رحل ترك طبقة من المثقفين المؤمنين بالغرب وصداقته والمعظمين لفكره وتأهيلهم للسيطرة عن طريق الأحزاب والتمثيل البرلماني حتى يكرّسوا ظاهره الاستعمار الجديد. إن هذه الطبقة حينما تستورد مظاهر عيش الغرب، وتتفنّن في ذلك تتحول إلى أداة استغلال لمجتمعها، ويكون همّها ينحصر في اعتصار الجماهير لتدفع ثمن الترف، همّها سحق القاعدة العريضة من الجماهير ثمناً لهواها وثمناً لهجرتها إلى عصر غير عصرها، وإلى حضارة لم تساهم فيها، وبذلك تنفصل كلياً عن مجتمعها. إلا أنّها لا تدرك بحكم ترفها وتنعمها أن هذا المستوى الذي تعيش فيه ليس تقدّماً، لأن ركوب السيارة المستوردة، وتبني التيارات الفكرية المستوردة ليس تقدماً للمجتمع الذي يستوردها بقدر ما هو تبعية.

وتتضمن الإيديولوجية الليبرالية فكرة تحديث العالم المتخلف بواسطة الشركات المتعددة الجنسيات، والتي بنشاطاتها المتنوعة والمتداخلة تمثل وسيطاً ناقلاً لنظم وقوانين وثقافات تؤكّد كل يوم قيم المجتمع الاستهلاكي الذي يقوم على اللهف وراء مستويات الرفاه الغربي دون الوعي بحقيقة هذا الرفاه الذي ينطوي على سلبيات كثيرة ومتعدّدة الوجوه مثل انتشار الجرائم والأمراض وغير ذلك.

هذا إضافة إلى أن هذه الشركات نجحت في إخضاع مستهلكي الدول الفقيرة لا لأنّها تستطيع الإنتاج بنفقة أقل أو لأنها تقدّم إنتاجاً أجود، ولكن لأنها تلح دائماً على أن منتوجاتها ومصنوعاتها هي دليل الرجل والمرأة والطّفل إلى الحياة العصرية، فهي تدرك تماماً أنها إذا أرادت أن تبيع فعليها أن تمهّد لذلك نفسيا عند المشترين وأن تخضعهم روحياً لقبول منتجاتها دون نقد.

وقد أنتج هذا التيار الليبرالي الحركة الاستعمارية البشعة التي أدّت إلى إنعاش الرأسمالية وذلك بنهب خيرات الأمم المستضعفة مدعية أنها تقوم بمهمّة تحديثية لهؤلاء البدائيين في نظرها بغرض إنقاذ «الأهالي» من «طفولتهم» والسعي إلى «ترشيدهم»، تحت شعار «التنمية» أو التحديث». وقد وجد هذا الاستعمار، وكما ذكرت ذلك سابقاً في المجال الثقافي سلاحاً خطيراً يقاوم به الانتماء العربي إلى

القيم الأساسية التي أقام بناءه الفكري عليها، وكما قال الأستاذ علال الفاسي رحمه الله : «إن الاستعمار الغربي في بلاد المسلمين لم يحدث من الخراب في الأرض وفي الأجسام ما أحدثه في العقول والقلوب والأفهام»[20].

إن التيار الليبرالي يقوم على أساس الغزو الفكري الذي هو أخطر جوانب النفوذ الاستعماري في الوقت الراهن والذي طرح مشكل الثقافة داخل المجتمعات العربية المستعمرة لأن الأمر يتعلّق باحتكاك ثقافتين مختلفتين تنتميان لمجتمعين متباعدين على جميع المستويات : ثقافة البلد المستعمر، وفي مقابلها ثقافة المجتمع المستعمر التابع. هذا الاحتكاك بين ثقافتين ومجتمعين من هذا النّوع أدّى إلى ظهور ظاهرة اجتماعية ثقافية يمكن تسميتها بالمُثاقفة أو بالتّأقلم الثقافي الذي لا يعني أكثر من التّبعية الفكرية للغرب.

ولعل تجربة تركيا الكمالية لخير دليل على ما فعله ويفعله الفكر الليبرالي الغربي داخل الشعوب المستضعفة.

3 ـ الإسلام هو الأصل وهو البديل :

إذن من هنا نلاحظ أن المشكل الثقافي أو ما يمكن تسميته بأزمة الثقافة داخل المجتمع المغربي لم يطرح إلا بعد الاستعمار، وبعد تدخل الدول المتقدّمة بتقديم النّصح إلى البلدان الفقيرة بأن تمضي قُدماً بزيادة إنتاجها على النّمط الغربي بصرف النّظر عما ينتج عن ذلك من آثار على حياة هذه البلدان الاجتماعية والثقافية.

ويمكن القول بأن كل تيار لا ينطلق من الذات المغربية الإسلامية ومن الثقافة الإسلامية هو تيار مفروض من فوق ولا يخدم إلا مصالح الاستعمار الجديد ولا يخدم إلا ظاهرة التّبعية.

وعلماء السياسة والاقتصاد أمثال «أتابي» و«جيوم» الفرنسيين، يؤكدون بأنه : «... لا يوجد الآن مشروع سياسي في الدول المتقدّمة، وأكثر النماذج السائدة فيها هي إلى حد بعيد متهالكة، وليس لها تنظيم اجتماعي يستثير الحماس، وهي تعاني من صعوبات التّطور الاقتصادي. والناس ينشدون فيها التّحرر من اللّعبة الاجتماعية، ويحاولون خرق الحواجز، ويسعون لتغيير الحياة ويتطلّعون للسعادة كضالة منشودة»[21].

فإذا كان الأمريكيون والسوفيات قد تسنموا الآن ذروة القدرة واحتلوا قمة المعرفة العلمية والتكنولوجية فهل معنى ذلك أنهم قد بلغوا حقّاً أوج الحكمة الإنسانية ؟ هذا ما يشكّ فيه الباحث الفرنسي «جندرم» في كتابه «فقر الأمم» حيث يقول : «كل تحليلاتنا تشير إلى التّدهور الثلاثي لنسق الحياة الصناعية : تدهور الطبيعة، تدهور الرّوح الاجتماعية، تدهور الإنسان نفسه متمثّلاً في النّمو الاقتصادي والتّخلف الثقافي»[22]. ولن يصحح هذا الاختلال إلا بثورة ثقافية إنسانية شاملة ترد الاعتبار للانسان كإنسان، ولذلك فإن نموذج التقدّم المطلوب هو النموذج المضاد للنماذج السائدة لا النموذج المقلد لها تلك النّماذج التي تزيد باحتكاراتها الأغنياء غنى والفقراء فقراً، وتعقد مشاكل الإنسان أكثر مما تحلها على الرغم من تذرّعها بالعلمية لتأكيد حتمية الالتزام بأحد النموذجين.

وهذا يدحض ما ذهب إليه «طه حسين» في الثلاثينات عن «مستقبل الثقافة في مصر» داعياً إلى أن نسير سيرة الأوروبيين، ونسلك طرقهم. وما ذهب إليه كذلك «عبد الله العروي» في مؤلّفه «العرب والفكر التاريخي» حينما دعا إلى ضرورة اجتثاث الفكر السلفي من محيطنا الثقافي كشرط للتّقدّم، ثم يقول : «رب معترض يقول : «ستكون ثقافتنا المعاصرة تابعة لثقافة الغير» وهنا يرد بوضوح وبكل بساطة : «وليكن اذا كان في ذلك طريق الخلاص» !!!.

فأي خلاص هذا الذي ينشده أُستاذ ومفكّر يخطط لمستقبل الأُمّة العربية وللمجتمع المغربي ؟ إنه خلاص «النعامة» ليس إلاّ.

إن من يتأمّل التاريخ الاقتصادي للدول التي تفوقت علينا اقتصاديا وبنت حضارة صناعية متقدّمة لن يصادف مثالا واحداً لم تقترن فيه النّهضة الاقتصادية، وبالذات فيما يسمى بمرحلة الانطلاق بشعور قومي عارم، وبرغبة قوية في إثبات الذات، وبأنها ليست بأقل قدراً من الأمم الأُخرى.

إن ما ينقص المجتمع المغربي والأمّة الإسلامية اليوم هو التّصنيع الذي يجب أن تؤهّل له نفسياً وفكرياً ومادياً لأن نقطة البدء لأية أُمّة جادة في تحقيق ثورتها الصناعية هو الابتداء بتحرير فكرها ونفسها.

إن بناء مستقبل أفضل للمجتمع المغربي لن يكون إلا باسترجاع الهوية وتحقيق الاستقلال الفكري الذي يتمثّل في الإسلام كعقيدة ونظام وحياة.

الهوامش

1) ليوطي : المقيم العام الفرنسي في المغرب في العقد والنصف الأول من عصر الحماية (1912 ـ 1926).
2) كتاب : الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية، د. ابراهيم السولامي ص. 47.
3) مارتي : مقيم فرنسي في المغرب في عهد الاستعمار.
4) كلاي : مقيم فرنسي في المغرب أيام الاستعمار.
5) من كتاب : الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا (أنور الجندي)، ص. 82.
6) من كتاب الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا ص. 327، أنور الجندي.
7) المحرر الثقافي 11 نونبر 1979.
8) شروط النهضة لمالك بن نبي ص 229.
9) معذبوا الأرض : فرانز فانون ص. 226.
10) العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، أنور الجندي ص. 260.
11) معذبوا الأرض، فرانز فانون 226.
12) مجلة العربي، عدد 227 شوال 1397، أكتوبر 1977 ص. 61.
13) من كتاب التنمية الاقتصادية والتخلف الثقافي، ج 2، لأوزريس سيكوني..
14) مجلة عالم الفكر مايو/يونيو 1979 ص. 93.
15) التفسير الإسلامي للتاريخ : عماد الدين خليل ص. 232.
16) المرجع السابق.
17) الحلول المستوردة : يوسف القرضاوي ص. 159.
18) نفس المصدر ص 172.
19) مجلة العربي، عدد 199، جمادى الأولى 1395 موافق يونيو 1975.
20) الفكر والثقافة العربية المعاصرة في شمال افريقيا أنور الجندي ص. 61.
21) مجلة العربي العدد 237، شعبان 1398 غشت 1978، ص. 23.
22) مجلة العربي، ع. 237 ص. 23.

رسالة من :
الدكتور محمد أركَون

الأخ المفضل فلواتي،
مدير مجلة «الهدى»،
تحياتي الطيبة،

وبعد، فقد أخبرني أحد الزّملاء من المغرب أنّ مجلة «الهدى» قد نشرت مقالات متتابعة للأُستاذ محمد بريش، تخصُّ كتبي وفكري. ولكن مع الأسف لم أستطع اشتراء الأعداد التي نُشرت فيها المقالات، فلم أقرأ بعد ما كتب عنّي الزميل بريش، وفيما قيل لي قد وقف موقف المهاجم الرافض لمحاولاتي وجهودي منذ سنوات عديدة. ومع أنّي قد تعودت مثل هذا العنف من الإخوان والزّملاء المسلمين الذين يدافعون عن قيم وإيمان وتراث وإسلام وأصالة أقصد في الحقيقة توطيدها وتحديثها، فأحس دائماً بحزن عميق وأشعر بضعف وفشل عندما يصدمني المناضلون بانتقادات غير منصفة.

ومع ذلك فإنّي حريص على قراءة الأعداد المنشورة حتى أحاور الزميل بريش وأُصحّح النّقاط التي تدعو إلى تعديل وتصحيح. أرجو أن تتفضّلوا بإرسال هذه الأعداد، كما أرجو أن تبلغوا هذه الرسالة للأستاذ بريش حتى يتأكّد أنّي لا أُريد الجدال العقيم بل أقصد تعميم الفائدة بين القرّاء المسلمين. يسرّني أن يتكلّف المثقّفون قراءة مؤلّفاتي ونقدها الإيجابي البنّاء؛ وأنا مستعدٌّ أن اتراجع عمّا تورطت فيه من أغلاط أو نقص أو عدم إنصاف؛ ولكن لا يتم ذلك إلاّ بالحوار المتفتّح الأخوي، وهذا ما أدعو إليه الأُستاذ بريش قبل أن أعرف ما نالني به من شتم وهجوم.

تقبّلوا مع شكري، مشاعر تقديري.

الهدى : نخبر الأُستاذ محمد أركون أنّنا قد بعثنا له بالبريد الأعداد المطلوبة من المجلة. كما نبلغه أننا قد احلنا صورة لرسالته هذه إلى الأُستاذ محمد بريش كاتب المقالات المذكورة.
ويسرّنا أن نؤكّد للأُستاذ أركون أن المجلة ترحب بتعقيباته، وذلك في إطار رسالتها في خدمة البحث العلمي النزيه والمخلص.

أما آن لهذا العقل أن يتعقل ؟!

﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾ الأنفال : 22

● الأستاذ محمد المعلمي

توطئة :

إذا كانت أعمال العقلاء منزهة - حقاً - عن العبث، فإن مصداقية هذه القولة تذوب - اليوم - بفعل حرارة الأحداث المأسوية التي تمزق رقعة العالم العربي والإسلامي، فمن فتنة الخليج إلى دمار لبنان إلى جهاد الأفغان إلى مأساة تشاد إلى تطويق المقاومة الفلسطينية إلى ضرب الحركات الإسلامية والانقضاض على أبنائها بشكل جنوني، وكيل التهم لها، ونعتها بكل ما في قاموس الشتيمة من «وصف جميل».

وفي الوقت الذي ترفع فيه شعارات «العقلانية» و«التعقل»، تخيم على أوضاعنا سحب قاتمة من «اللاعقلانية»، فنحن نتشرذم ولا نتوحد، ونتفتت ولا نتكتل، ونسارع في طلب ود مستنزفي ثرواتنا، بل ونتكامل معهم لتزداد الهوة بين أقطارنا اتساعاً، وليتحالف الشقيق ضدا على شقيقه، فتحاك المؤامرة تلو المؤامرة، وتكرس - بالتالي - الفرقة وتحكم خيوط التبعية للأجنبي.

هذا هو حال أمتنا، وكأن قدرها أن تعيش المأساة بكل فصولها، فمن جحود جاهلي، إلى حقد صليبي، إلى دمار مغولي، إلى عدوان استعماري - صهيوني، إلى غزو فكري جهنمي، إلى استنزاف اقتصادي، إلى زرع البلبلة والفتن بين الاخوة الأشقاء؛ ولقد «كان الهدف دوما - وما يزال - إلغاء الدور الحضاري لهذه المنطقة ولشعوبها وإبعادها عن الواجهة الحضارية العالمية ومحو طابعها العربي الإسلامي...»(1)

فعالية الدراسات العقلانية في حياة الأمة :

رداً على التحديات، السالفة الذكر، يبقى مشروعاً التساؤل عن مدى فعالية الدراسات المتمحورة حول «العقل» و«العقلانية»، في تحجيم هول الكارثة الحالّة بأمتنا وتحويلها إلى عامل دفع وإيجاب في مواجهة ومعالجة مشاكلنا.

حقا، إن المتتبع لما لفظته المطابع ودور النشر في السنوات الأخيرة، من كتب ودوريات حول العقل والعقلانية ينتابه شعوران : شعور غبطة، وشعور حسرة؛ الاغتباط بهذا الاهتمام الإيجابي بطاقة حيوية أريد لها أن تتعطل لحين من الدهر، والتحسر على تهميش هذه المساهمات الجادة، عن مجرى حياتنا الواقعية، المتعطشة لكل ما من شأنه أن يقوم اعوجاجها ويرقى بها من الوهدة التي تردت فيها بفعل شتى عوامل الانحطاط والتخلف... لذلك، لابد من القيام بإطلالة على هذه الدراسات، حتى نتبين الهواجس التي تحركها والهموم التي تشغل بال أصحابها.

لقد اتخذت هذه الدراسات لنفسها مسارات متعددة ومتنوعة، من حيث تصور الموضوع والمنهج المعتمد في معالجته والآفاق التي تستشرفها؛ ويمكن إدراج توجهاتها - إجمالاً - في ثلاث خانات :

الأولى قومية - الثانية : علمانية - الثالثة : إسلامية.

وهكذا، فمن دعوة إلى «تحديث العقل العربي»(2) (د. حسن صعب)، عبر التحول الثوري من صناعة الكلمات إلى صناعة الأشياء، والقائم على التحديث البنيوي والتربوي والإعلامي؛ إلى تفرغ «لنقد العقل العربي» (د. محمد عابد الجابري)، بغية بحث «تكوينه» وتحليل «بنيته»؛ والعقل العربي المقصود في هذا المقام هو «جملة المفاهيم والفعاليات الذهنية التي تحكم، بهذه الدرجة أوتلك من القوة والصراحة، رؤية الإنسان العربي إلى الأشياء وطريقة تعامله معها في مجال اكتساب المعرفة، مجال إنتاجها

وإعادة إنتاجها».[3] ومن نقد العقل العربي إلى الحديث عن «اغتيال العقل» العربي (برهان غليون)؛ حيث يواجهنا صاحبه برفع شعار «نأخذ من الحضارة ولا نؤخذ بها، نحيي التراث ولا نحيا به» لذلك صرف اهتمامه إلى البحث عن طريق رابع بين ما يسميه الحداثة المضيعة والمضيعة وبين السلفية المفقرة، والتوفيقية السحرية... وهذا الطريق الرابع هو طريق الإبداع واكتشاف الذات دون ذوبان في الغرب أو تقليد له ودون تقوقع في الماضي ودون توفيقية ساذجة... والتمسك بالهوية والاندفاع وراء الحضارة حركتان أصيلتان متكاملتان، فالسعي وراء الحضارة يصون الجماعة من التحول إلى ركام تاريخي، وتأكيد الهوية يصون الجماعة من الانحلال والاندماج في الآخر ومن الاندثار كجماعة مستقلة ومتميزة...[4]

وتتسع دائرة الاهتمام بالعقل فيتم الحديث عن «نقد العقل الإسلامي» (د. محمد أركون)، حيث انصب جهد صاحبه على هاجس النقد اللاهوتي، لكون العقل لديه هو «القوة المتطورة المتغيرة بتغير البيئات الثقافية والإيديولوجية، القوة الخاضعة للتاريخية Historicité فإن العقل العامل في الخطاب القرآني غير الذي نلتمسه عند المعتزلة والفقهاء والمتكلمين والفلاسفة والطبيعيين... وكل تلك العقول كانت مرتبطة ارتباطاً متفاوتا بما يسميه الأنتروبولوجيون المخيال الاجتماعي...».[5]

ونصل إلى كتاب «حول إعادة تشكيل العقل المسلم» (د. عماد الدين خليل) الذي تضمن أبعاد «التحولات» الاعتقادية والمعرفية والمنهجية التي أحدثها الإسلام في جيل النبوة «فأعاد بها تشكيل العقل البشري ودفعه إلى العطاء والإبداع...»[6] وفيه يدعو المؤلف إلى قيام مجتمع إسلامي «تكنولوجي»، وبدء عصر «تكنولوجيا إسلامية» لما يمثله ذلك من استمرار طبيعي لموقف الإسلام الإيجابي من معطيات العلم : ولكونه تزكية «واستكمالاً للدعوة إلى إعادة تشكيل العقل الإسلامي من أجل أن يكون أكثر قدرة على استيعاب المتغيرات وتطوير الحياة الإسلامية وحمايتها ـ في الوقت نفسه ـ من التفكك والعدوان».[7]

والنتيجة التي تسفر عنها رحلة القارئ في سطور هذه الأسفار، تقرر حقيقتين :

أولاهما : إجماع أصحابها على ما يعانيه العقل في أمتنا من خلل وعنت.

ثانيتهما : إيمانهم وتحمسهم لإعادة النظر في صياغته وتشكيله وفق التطلعات الجديدة.

والواقع، أن غياب الممارسة العقلانية عن محيطنا العام أو تغييبها أفرز أوضاعاً وسلوكات ومواقف لاعقلانية تعمق أخدود الانقسامات وتزكي أحوال التخلف المشين؛ ويكفي، كاتب هذه السطور، تدليلاً على ذلك، أن يورد حالتين مستخلصتين من متابعات الصحف العربية. كتابة وكاريكاتوراً، لما يجري في أقطارنا من خروقات سافرة تند عن حدود المعقول :

الأول يبرز التصرفات اللاعقلانية لدى رواد برج السياسة في معالجة قضايانا الساخنة؛ ففي الوقت الذي ينصب أحدهم نفسه وسيطاً، ضمن ما يسمى في قاموسهم بالمساعي الحميدة، بين طرفين متنازعين، نجده مورطاً إلى الأذقان في حرب استنزافية مع أحد جيرانه الأشقاء.

والثاني يعري تعفن بعض العقليات التي تنظر إلى أوطانها وكأنها «بقرة حلوب» خلقت لإشباع نهمها وتهالكها على الملذات ولو كانت من عرق جبين ملايين المستضعفين الكادحين، من ذلك حرمان مئات الآلاف من الأسر في حر الصيف من مياه الشرب، في حين تهدر المياه هدراً في مسابح «المحظوظين» ومن والاهم من «القطط السمينة !!».

بناء على ما سبق فإن فعالية تلك الدراسات، مهما كانت نوايا أصحابها، تمكن في تحفيزنا للبحث عن السبل القمينة بتنشيط خلايا عقلنا المحاصر ودفعها إلى الإبداع والتطور الكيفي والنوعي؛ دون أن يخامرنا شك حول عبقرية عقلنا العربي ـ الإسلامي، إذ الاهتمام منصرف إلى ممارسة جديدة للمعرفة الكفيلة بتفادي المعالجة اللاعقلانية لمعضلاتنا الفردية والجماعية.

شروط تضمن رسوخ الروح العقلانية في حياتنا :

إن ما نتأفف منه اليوم من مظاهر سلبية في حياتنا العامة ليس وليد الصدفة؛ وإنما نتيجة تراكمات تاريخية، الأمر الذي يحتم ضرورة الاستفادة من سنن التاريخ

والاتعاظ بعبره، ولن يحصل شيء من ذلك ما لم يتم البحث عن الشروط التي تقينا الوقوع فيما نحن فيه من تخبط واضطراب فكري وسلوكي؛ وترقى بنا نحو سدرة الصورة المشرقة التي أرادها لنا ديننا الحنيف. وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى ما يستشعره المرء من حرج ورهبة وهو يحاول البحث عن هذه الشروط ضمن عصارة أفكار وتجربة مفكرين أفنوا حياتهم في البحث والتنقيب والتأليف : قصد تصنيفها حسب سلم الأولوية.

وتوخيا لهذه الغاية فإن الشروط التي تضمن رسوخ الروح العقلانية في حياتنا بكل مستوياتها يمكن إدراجها على الشكل التالي :

1 - حضور روح التجديد والتجدد في كياننا عبر تحمل فئة المستنيرين لمسؤولياتها التاريخية أمام الله وأمام التاريخ؛ خاصة و«ان الدعوة إلى التجديد ليست بدعة بل هي جزء من تعاليم الإسلام الخالدة التي وردت في الحديث الشريف «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها»[8] وإن المتأمل في هذا الحديث النبوي الشريف يخلص إلى حقيقة عظيمة الشأن مفادها «أن الأمة الإسلامية تخضع للتطور كغيرها من الأمم الأخرى، وتنذر بأنه لا تمر مائة عام إلا وتكون في حاجة لبعث جديد ويقظة ثانية، وأن ما قرره عصر سابق من أساليب لا يمكن أن يتحكم فيما يريده العصر الموالي، لأن التجديد لا يعني دائماً الترميم، بل يعني حتى الاستبدال وإن كان لا يقصد أبدا عدم المتابعة للأساس...»[9]

2 - تجديد الفكر التربوي والتعليمي في العالم الإسلامي، عن طريق إعادة «النظر في أهدافنا التربوية ومحتويات برامجنا التربوية والتعليمية والأساليب المتبعة لتحقيق الأهداف فنصوغها من جديد...»[10] وفق حاجياتنا الراهنة وتطلعاتنا المستقبلية؛ حتى يتسنى لنا إعداد الأجيال الصاعدة وتربيتها حسب منظور علمي - عقلاني مستمد من عظمة ديننا، ومن ثم وجب الاهتمام بجوانب التربية العقلية الإسلامية، الكفيلة بتكوين عقلية مؤمنة (إسلامية)، تنظر إلى الكون وما وراءه بالمنظار الإسلامي وتستكنه الحياة وما بعدها بالتصور الإيماني؛ تتقوى وتتعزز باستمرار بمستجدات العلوم المختلفة وتتحول إلى التزام فعلي في الحياة العلمية وتستفيد من الشروط المسعفة على تنمية القدرات العقلية، ابتداء من الاحتكاك الفكري وانتهاء بانتقاء أجود الأطعمة وأزكاها للتفكير البشري.[11]

إن الدعوة ملحة وملحاحة إلى إعادة النظر في هياكل التعليم بالبلاد العربية والإسلامية؛ وصياغة المقررات المدرسية بناء على دراسات ميدانية لغاية خدمة العقل وتشغيله وتوظيفه التوظيف الذي يرتضيه منطق الدين الإسلامي؛ فلا يعقل أن نتحسر ونتأسف على غياب العقل في حياتنا وعلاقاتنا الاجتماعية ونعرب عن رغبتنا الأكيدة في تغيير بني مجتمعاتنا صوب الصورة المثالية التي ارتضاها ديننا، ونحن لم نفكر في غرس أصول التفكير العقلاني لدى ناشئتنا منذ مرحلة الروض وطيلة مراحل التعليم والتعلم.

3 - تصحيح علاقة العقل بالوحي في التفكير الإسلامي[12] ذلك أن تتبع مواقف الإسلام الإيجابية من الطاقات البشرية وفي مقدمتها الطاقة العقلية، التي يحترمها ويشجعها ويوجهها نحو طريق الخير[13] ليدعو إلى إعادة النظر في علاقة العقل بالوحي في تفكيرنا الإسلامي بغية تصحيحها، خاصة وأن مشكلتنا في هذا الصدد «تتلخص في كيفية استخدام العقل لا في ضرورة العقل من عدمها»[14] ولذلك فإن قصوره أو تعطيله لا يعني ضياعه فقط، بل ضياع الوحي معه من جراء التقصير والقصور في فهم أبعاده وغاياته، أو فهمه على غير حقيقته، فتتضاعف الأضرار، لذلك «لابد من العقل كمصدر للمعرفة والفكر والثقافة الإسلامية، ولكن لابد من استخدامه بوعي في إطار الوحي وغايته، أي لابد من انضباط والتزام في استخدام العقل بحيث لا يجري ضد الغاية الإسلامية أو الإطار الإسلامي».[15]

وإن المتدبر في الآيات القرآنية الكريمة المتضمنة لمادة «عقل» وسياق ورودها لواجد فيها ما تمت الإشارة إليه في شأن استخدام العقل ثم إن الخطاب القرآني في هذه النقطة محكوم من الناحية الصرفية بصيغة الجمع (عقلوه، تعقلون، نعقل، يعقلون)؛ ويتوزعه ضيران أساسيان : جمع

المخاطب (أنتم / أنتن) وجمع الغائب (هم / هن)، إضافة إلى وروده في صيغة «فعلية».[16]

وليس بدعاً أن يصاغ الخطاب الإلهي في هذه النقطة على هذه الشاكلة؛ فصيغة الجمع، والربط بين الغائب والمخاطب (الماضي / الحاضر، المستقبل)، وطابع الفعلية، لها أكثر من دلالة، خاصة إذا ربطت بأخص خصائص الدين الإسلامي القائم على الشمولية في تعامله مع الكائن البشري، والنظرة الواقعية ـ الإيجابية إلى معطيات الكون.

ولقد تبلورت هذه الحقيقة في مواقف وعطاءات أفواج العلماء زمن الإشراق الإسلامي، حيث تفاعلوا مع النص القرآني والحديثي فصاغوا أنساقاً معرفية وحياتية عظيمة الشأن أبانت بجلاء خصوبة العقل الإسلامي واعتزاز ذويه بالتميز والتفوق والسعي الدؤوب نحو ارتياد آفاق العوالم الجديدة فأثْرَتْ مساهماتهم الفكر الإنساني كيفا ونوعا؛ ولم يكن موقفهم هذا مرحليا أو تمليه مصلحة ظرفية، بقدر ما كان مبدأ متأصلا فيهم تأصل الإيمان في خلجات أفئدتهم، ولنتأمل ما قاله ـ على سبيل المثال ـ الماوردي في فضل العقل : «اعلم أن لكل فضيلة أساً، ولكل أدب ينبوعاً. وأس الفضائل، وينبوع الآداب، هو **العقل**، الذي جعله الله، تعالى للدين أصلاً، وللدنيا عماداً فأوجب التكليف بكماله، وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه، وألف به بين خلقه، مع اختلاف هممهم ومآربهم، وتباين أغراضهم ومقاصدهم...»[17] ولنتأمل أيضاً ما عقده ابن الجوزي في فصل «العقل أصل الدين» :

«مدار الأمر كله على **العقل**، فإنه إذا تم العقل لم يعمل صاحبه إلا على أقوى دليل. وثمرة العقل فهم الخطاب، وتلمح المقصود من الأمر...».[18]

وعلى مسلم اليوم تطوير هذه المواقف الرائدة بتفتيق طاقاته وإعادة تشكيل عقله اعتمادا على إنجازات العلم الحديث لأنه «ليس ماردا كافراً لكي نتبرأ منه وندعو لحربه، ولكنه أداة حيادية يمكن أن نوظفها لخدمة ديننا وتعزيز عقيدتنا...»[19] خاصة وقد بلغ الزخم التكنولوجي حدا، ليس من المعقول أن نبقى معزولين عنه، ولا يعقل بتاتاً أن نظل ذيليين استهلاكيين ـ اهلاكيين، نبذر ولا ننتج، في وقت انتقل مستغلونا من طور توظيف العقل البشري في إعداد وتنفيذ مشاريعهم إلى تسخير «العقول الالكترونية» في وضع المخططات المبرمجة وتطويع الأنظمة على كافة الأصعدة.

4 ـ أهمية التلاقح بين الفعاليات الفكرية المتنوعة في أمتنا : إذا كنا مطالبين، اليوم، بتشغيل العقل المسلم، عبر تحويل نتاجاته إلى نسغ يحيي الأوصال المعطلة والأعصاب المشلولة في جسم أمتنا، فإن ذلك سيبقى ناقصاً ومحدود التأثير، مالم تمد الجسور بين مختلف التخصصات والفعاليات الفكرية في عالمنا العربي والإسلامي، وبلورة نتاجات هذا اللقاح في مشروعات عملية، خاصة مايرتبط منها بالبرامج التربوية والتعليمية، لما لها من دور في تجذير وتعميق هذه الطروحات، وبالتالي صيانتها وتوسيع دائرة إشعاعها وحمل نبراسها من جيل إلى جيل، وبذلك يضمن تشغيل وتحريك العقل العربي الإسلامي ليتفاعل مع الذات والتاريخ والكون طلبا للتغيير والتحويل في نطاق الشمولية الإسلامية.

ولعل أضخم مسؤولية تواجه هذه الفعاليات مجتمعة، هي التفكير الجدي في كيفية تمرير وتسريب إبداعات العقل العربي ـ الإسلامي إلى مراكز القرار السياسي بغية الاستفادة منها على أوسع نطاق، والتمكن من القضاء على مظاهر اللاعقلانية التي تعج بها حياتنا العامة؛ ذلك أن اختراع الأدوية ـ مثلا ـ سيبقى عديم الجدوى مالم يواكبه تكوين الأطر الطبية القادرة على الاستفادة من ذلك في معالجة الحالات المرضية التي تتم مباشرتها في المصحات والمستشفيات العمومية، وهو ما يصدق في مجال تحديث العقل العربي الإسلامي وإعادة تشكيله وصياغته، إذ لا جدوى مما يبذل من جهد ما لم تعززه الإرادة السياسية في أمتنا وتساهم في البحث عن المنافذ الكفيلة بإيصاله إلى ألباب الناشئة عبر قنوات التربية والتعليم والتكوين المستمر ووسائل الاتصال الجماهيري بكل فروعها وأجهزتها... دون أن يعني هذا خضوع الفعاليات المفكرة للسلطة السياسية، للسقوط في التبريرية والهتافية والتمجيد المجاني، وحفاظاً على قداسة الفكر المسؤول وصونا له من التمييع والابتذال،

أو كما قال الشاعر :

ولـو أن أهـل العلم صــــانـوه صــــانهم
ولــو عظمــوه في النفــوس لعظّمــــا
ولكن أهــــانــوه فهـــــان ودنســـوا
محيـــاه بـــالأطمـــاع حتى تجهمـــا[20]

من هـذا المنطلق، مطلوب من مفكرينـا أن يكونوا ـ أصلاً ـ عقلانيين فيمـا يبـاشرونـه من أبحـاث ودراسـات، شريطـة أن يكـونـوا عقـلاء ومتعقلين، وهي خصلـة ليست بدعة في أدبيـات تراثنـا الإسلامي، إذ تكفي إطلالـة قصيرة على بعض المعاجم وكتب اللغة ليتبين الارتبـاط الوثيق بين العقل والفضيلة الخلقية.[21]

وعليـه وجب التحــذير من مغبـة الانقســامـات والانشقـاقـات على مستوى العقـل العربي ـ الإسـلامي، لمـا يترتب عنهـا من صـداع حـاد ومـزمن، يعجـز صـاحبـه عن ممارسة دوره الإيجابي في حياة الأُمة.

خاتمة :

وصفوة القول : فـإن الأخـذ بتلابيب التفكير العقلاني هو صمام الأمان لأُمتنا وهي تمخر عبـاب المستقبل، وتخوض غمـار الصراع الحضـاري، وتبني صرح مجدهـا سـافـا فـوق سـاف، ولبنـة فوق أخرى دون أن تحيـد عن محجـة الأخلاق البيضاء قيد أنملـة، إذ متى انفصمت تلـك العروة الوثقى، إلا وضاع العقل في زحمة الأنـانيـات وفقد تعقلـه، ورحم اللـه الشـاعر ابراهيم بن حسـان، وهو يشيـد بمنـزلـة العقـل ومـا يصـدر عنـه من تعقـل في مجرى حيـاة الإنسـان؛ فقـال : (الطـويل)

يـزيـد الفتى في النـاس صحـة عقلـه
وإن كـــان محظـوراً عليــه مكـــاسبـــه
يشيـــد الفتى في النـــاس قلـــة عقلـــه
وإن كرمت أعراقـــه ومنــــاسبـــــه
يعيش الفتى بـــالعقـــل في النـــاس إنـــه
على العقـــل يجري علمــــه وتجـــاربـــه
وأفضـــل قسم اللـــــه للمرء عقلـــــه
فليس من الأشيـــاء شيء يقـــاربـــه
إذا أكمـــل الرحمن للمرء عقلـــــه
فقـــد كملت أخـلاقـــه ومـــآربـــه

الهوامش :

1) د. شـاكر مصطفى، المستقبـل والهويـة الحضـاريـة، مجلـة الفكر العربي المعـاصر ع.1981/12م.
2) د. حسن صعب : تحديث العقل العربي. دار العلم للملايين.
3) د. محمد عابد الجابري : تكوين العقل العربي. ص : 70 ـ دار الطليعة 1984م.
4) مجلة الوحدة. ع.27/26. 1987/1407. ص : 200/199.
5) د. محمـد أركـون، نحـو تقييم واستلهـام جـديـدين للفكر الإسـلامي، مجلـة الفكر العربي المعاصر، ع.1984/29.
6) د. عمـاد الـدين خليل : حول إعـادة تشكيـل العقـل المسلم (كتـاب الأُمـة، رقم 4) ص : 35.
7) المرجع السـابق، ص : 149.
8) د. محمــد فــاضـل الجمــالي، نحـو تجـديـد الفكر التربـوي / المسلم المعــاصر. ع.1985/42م.
9) علال الفاسي : النقد الذاتي، منشورات الكشاف. ص : 127،128.
10) د. محمد فاضل الجمالي في دراسته السالفة الذكر.
11) د. مقـداد يـالجن، جـوانب التربيـة العقليـة الإســلاميـة / المسلم المعــاصر. ع.1982/31م.
12) وجب التفريـق بين الفكر الإسـلامي والتفكير الإسـلامي، لأن الأول مرتبـــط بالوحي والثاني بالعقل البشري.
13) محمـد قطب : منهج التربيـة الإسـلاميـة، ج.1. دار دمشـق للطبـاعـة ط : 2. ص : 91.
14) د. عبد الحميد أبو سليمان، إسلامية المعرفة / المسلم المعاصر، ع.1982/31م.
15) المرجع السـابق.
16) للتذكير فقد ورد الفعلان «تعقلون» و«يعقلون»، كل مرة في نهاية الآية، باستثنـاء قوله تعالى : **﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحـاب السعير﴾** (الملك : 10).
وقوله تعالى : **﴿وتلك الأمثال نضربها للناس ومـا يعقلهـا إلا العـالمون﴾** (العنكبوت : 43).
17) الماوردي : أدب الدنيا والدين / ص : 19. دار الكتب العلمية. 1978م.
18) أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي : صيد الخاطر. المكتبة العلمية. ص : 211.
19) د. عماد الدين خليل في كتابه السـالف الذكر. ص : 142.
20) البيتان للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (290 هـ ـ 366 هـ)، راجع كتابه : الوساطة بين المتنبي وخصومـه، تحقيق وشرح : محمـد أبو الفضل ابراهيم، وعلي محمد البجاوي. دار القلم. ص : ز.
21) قـال أبو هلال العسكري في كتـابـه «الفروق في اللغـة» ص : 75 : «...العقل هو العلم الأول الذي يزجر عن القبائح. وكل من كان زاجره أقوى كـان أعقل، وقـال بعضهم العقل يمنع صـاحبـه عن الوقوع في القبيح وهو من قولـك عقل البعير إذا شده فمنعه من أن يثور...».
ـ وفي «لسـان العرب» لابن منظـور نجـد في مـادة (ع.ق.ل) : «العقـل : الحجر والنهي، ضـد الحمق، والعـاقل هو الجـامع لأمره ورأيـه... وسمي العقل عقلا لأنـه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك أي يحبسه...»
ـ وفي «القاموس المحيط» للفيروزابادي نجد في مادة (العقل) : أو العلم بصفـات الأشياء من حسنها وقبحها وكمالها ونقصـانهـا أو العلم بخير الخيرين وشر الشرين أو مطلق لأمور أو لقوة بها يكون التمييز بين القبح والحسن ولمعانٍ مجتمعـة في الذهن يكون بمقدمات يستتب بهـا الأغراض والمصـالح ولهيئـة محمودة للإنسـان في حركاته وكلامه، والحق أنه نور روحـاني بـه تـدرك النفس العلوم الضروريـة والنظريـة...».

محمد المعلمي

بريد القراء الكرام

إخواني القراء الكرام، وأخواتي القارئات الكريمات

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد :

- أرسل إلينا الأخ محمد محمد المعلمي بعض الملاحظات على مقال الدكتور هدارة المنشور في العدد المزدوج (17/16) إلا أن الذي نريد أن ننبه عليه أولا - قبل إفساح المجال لملاحظات أخينا حتى نبرئ الذمة - هو أن المقال المذكور (الحداثة والتراث) كان في أصله محاضرة ألقيت فأخذنا نسخة مصورة، ولم نستطع الاتصال بصاحبها لإعادة النظر فيها وتهميشها، ونشرناها حرصا على السبق الإعلامي الضاغط. وبعد هذا نفسح المجال.

يقول الأخ المعلمي :

الأخ الفاضل الأستاذ المفضل فلواتي.

وبعد :

فإني أبتهل هذه الفرصة الطيبة لأشكر الإخوة القائمين على شؤون مجلة (الهدى) الغراء، راجيا لهم مزيدا من التوفيق، وطلبا لذلك ارتأيت - بعد تردد - أن أبدي بعض الملاحظات التي عنت لي أثناء قراءتي لمواد العدد المزدوج (17/16).

ومما استرعى انتباهي فيها، على وجه الخصوص، دراسة د. محمد مصطفى هدارة المعنونة بـ : «الحداثة والتراث» والتي ضمت عدة نصوص وأقوال لباحثين وشعراء وقصاصين، غير أنها وردت غفلاً من الهوامش التي ترد النصوص إلى مظانها الأصلية، وتيسر بالتالي على المهتم أمر الرجوع إلى المصادر والمراجع المعتمدة.

وعلى هذا أبدي الملاحظات التالية :

1 - ذهب الدكتور هدارة في عرضه إلى وضع مصطلح الحداثة إزاء «Modernism» ومصطلح العصرية في مقابل «Modernity»، في حين أن العكس هو الصحيح، لأن مفهوم الحداثة الذي ظهر في أوربا إبان منتصف القرن التاسع عشر يقابله في الإنجليزية «Modernity» وفي الفرنسية «Modernité»، أما العصرية التي ظهرت ارهاصاتها في أوربا منذ القرن السادس عشر، فيقابلها في اللغتين على التوالي «Modernism» و«Modernisme». وللوقوف على الفرق الحاصل بين المصطلحين في الاستعمال الأوربي، يمكن الرجوع إلى تمييز هنري لوفيفر بينهما في كتابه «مدخل إلى الحداثة» «Introduction à la modernité» الصادر عن دار (مينوي) سنة 1962.

2 - إن ما أسنده صاحب العرض إلى (پول ريكور) من : «مستتر» و«مضمر» و«مكنون»، هو في الواقع نقل حرفي لما كتبته (فريال جبوري غزول) عن قصيدة (قراءة) للشاعر محمد عفيفي مطر تحت عنوان : (فيض الدلالة وغموض المعنى في شعر محمد عفيفي مطر). الواردة في مجلة فصول المصرية ع.1984/3. الخاص بالحداثة في اللغة والأدب (الجزء الأول).

3 - إن معظم الفقرات المدرجة في العرض هي اختزال لدراسات : محمد برادة وخالدة سعيد وكمال أبي ديب الواردة في نفس العدد من مجلة فصول. والأمر ذاته ينطبق على الاشعار المستشهد بها، خاصة اشعار أدونيس ومحمد عفيفي مطر..

إن هذه الملاحظات لاتحط، في شيء، من قيمة عرض الدكتور هدارة لو أنه جاء موثقا ومذيلا بهوامش حسب العرف المنهجي. اما وأنه خال من ذلك، فيعد ثغرة يستحسن تلافيها فيما يستقبل من دراسات، حفاظا على السمعة الطيبة التي تحتلها مجلة (الهدى) في النفوس المؤمنة، بما أبانت عنه من جدية وجدة، منذ بداية صدورها، وهو ما نرجو أن يبقى حاضراً خلال مسيرتها الموفقة، باعتباره نسغ استمراريتها وازدهارها.

حفظكم الله وسدد خطاكم والسلام عليكم.

أخوكم : محمد محمد المعلمي.

☆ ☆ ☆

- وكتب إلينا الأخ سعيد ساجدين داود من تازة يقول : إن الشباب ذخر الأمة، وانه لمما يحز في النفس أن شبابنا أصبح أفرغ من الفراغ، ولا أقول : أن الشباب جنوا على أنفسهم، ولكننا نحمل فوق ظهورنا وزرعدة قرون.

ومن بين الأسباب القاتلة عدم التوفيق بين الحياة والإسلام في انسجام تام، وكذلك، التحلل من روح العقيدة الإسلامية التي عمل المستعمر على هدمها، فكان ذلك مسبب وجود شباب منصرف إلى شهواته فقط بدون تقيد، وهذا هو الغزو الروحي والثقافي الذي لطخ حضارتنا، وطمس كل معالمها المشرقة، ولم يتن له ذلك إلا في ظلال جهلنا بالتربية التي تعصم الشباب من الانحراف...

- وأرسل إلينا الأخ محمد سويسي من فاس يقول : بعدما ذكر قراءته لمقال لأحد العلماء على صفحات جريدة الميثاق يندد بما قامت به جماعة من المرتدين بالبيضاء بمناسبة اليوم العالمي للمرأة، حيث اغتنموا هذه الفرصة للنيل من الشريعة الإسلامية واستنكار تعاليم القرآن والسنة في كل ما يتعلق بالمرأة.

«ولقد نسي هؤلاء العملاء خدام الصليبية، أنهم يعملون على هدم كرامة المرأة وهضم حقوقها وإرجاعها إلى مستوى المرأة في عصور خلت. أما الإسلام فقد رفع عنها الظلم، وجعلها عنصراً متمما للإنسان وسوى بينها وبين الرجل في كل شيء إلا فيما تفترق فيه طبيعتها عن طبيعة الرجل».

****

- وأرسل إلينا الأخ أحمد - س من القصر الكبير يقول : وبعد :

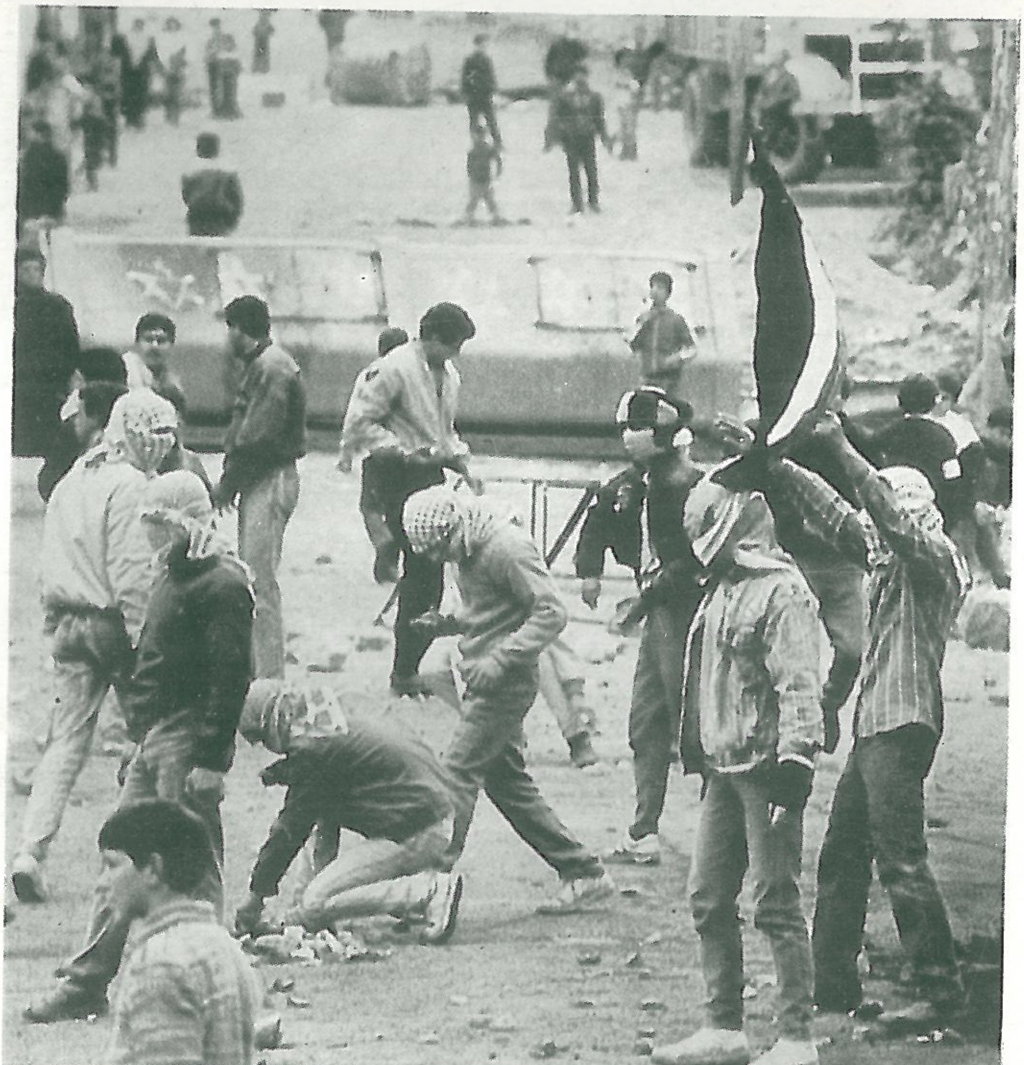
ومن موقع الغيرة على ديننا الحنيف، وإيمانا مني بمشروعية الدفاع عنه بكل الوسائل المتوفرة ألفت الانتباه إلى ما ورد في مقال نشر بالملحق الثقافي للمسار - 88/2/13 حول الرفض اللامنهجي في أشعار أمل دنقل، من عبارات أود الوقوف عندها: «يمجد (أمل) قيمة الرفض، حين يستحضر الشيطان، وهو أول رافض في التاريخ، كما تردد ذلك الحكايات الدينية، انها لوحة ساخرة تمشي بمرارة لا متناهية، فالله العادل يخلع ثوب الديمقراطية، ويمارس القمع مكرسا بذلك علاقة الأمر والامتثال ومصادرة حرية الرأي» (وذلك بمعنى أن الله سبحانه قد رفض مبدأ حرية الرأي حين غضب من رفض إبليس يوم أمره سبحانه بالسجود لآدم).

ونكتفي إخواني بهذا القدر طالبين من كل من يود المراسلة إلى هذا الركن أن يكون خطه واضحا أو مضروباً على الآلة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ردود خاصة :

- **الأخ عسري نور الدين :** قد وصل ما أرسلت وشكراً.
- **الأخ الخباز عبد الله :** المجلة ليست شهرية وعندما يوجد ما طلبته سيظهر في السوق أو يعلن عنه في المجلة.

جيل جديد ومرحلة جديدة



إنها مرحلة الجدية في تحرير فلسطين، مرحلة نبذ الشعارات الكاذبة، واليأس من المؤتمرات العاجزة، والقرارات الخادعة. مرحلة الإيمان بالجهاد الشعبي المستمر. مرحلة يقودها جيل المساجد والجُمعات، جيل لحسن الحظ لا تحبسه حدود الدول الشقيقة وجيوشها...

فهل تتحرك الشعوب العربية والإسلامية، وحكوماتها من أجل الدعم المالي - على الأقل - حتى يستمر الأمل ويكبر !؟

الانتفاضة المستمرة

بعد تسع سنوات من الجهاد المبارك
روسيا وحلفاؤها يجنون الجحيم

